الرسالة المفيدة في شرح القصيدة
وهي : (القصيدة العينية لابن سينا)

تاليف : علي بن محمد بن الوليد
تحقيق وتقديم وتعليق : الحبيب الفقي

مقدمــة

إن هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القراء يتكون من جزءين : القصيدة العينية لابن سينا وشرحها لعلي بن محمد بن الوليد .

ولد ابن سينا في قرية من قرى بخارى سنة 370هـ من أبوين اسماعيليين ، وانتقل مع والديه وإخوته إلى بخارى حيث بدأ تعلم القرآن والنحو والأدب ، ودرس الفقه قبل أن يكمل الثانية عشرة من عمره ، وبدأ يفتي الناس في هذه السن على مذهب أبي حنيفة ، ودرس الفلسفة والطب ، وألّف كتابه المشهور بالقانون وعمره ست عشرة سنة . وفي هذه السن أخذ يطالع الكتب بنفسه وساعده الحظ بأن عالج الأمير نوح بن منصور الساماني فشفي على يديه ، فكان ان فتح له مكتبته وتعلم منها الكثير . وتعرض في حياته لأحداث وتقلبات سياسية خطيرة عاش فيها بين السجن والوزارة . ولكن معرفته بالطب وتألّق نجمه ساعداه على أن يكسب ود الأمراء ويفلت من سطوتهم .

وقد سجل ابن سينا حياته بنفسه : أملاها على تلميذه الجوزجاني ، وأوردها كل من القفطي في إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء .

أما فيما يخص المذهب الذي كان ينتمي إليه فهو الذي يخبرنا بذلك حيث يقول : « وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين ، ويعد من الاسماعيلية . وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخي . وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي ، وابتدأوا يدعونني أيضا إليه ، ويُجرون على ألسنتهم ذكرَ الفلسفة والهندسة وحساب الهند ... وأخذ يُوجّهني إلى رجل كان يبيع البقل - يسمّى محمود المساح - ، ويقوم بحساب الهند والجبر والمقابلة حتى أتعلّمه منه ، وكنت أشتغل بالفقه وأتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد ... فلما بلغت إثنتي عشرة سنة كنت أفتي في بخارى على مذهب أبي حنيفة » .

ويبدو من هذا النص أن ابن سينا لم يكن يعجبه المذهب الاسماعيلي ومع ذلك لم يشر النص إلى عداء ابن سينا له ، كما أن والده لم يجبره على اعتناق المذهب الجديد بل فتح له سبل المعرفة وأقام له أساتذة يعلمونه كل معارف عصره .

ولابن سينا مؤلفات كثيرة (1) تنم عن ذكاء وعبقرية هذا الرجل ، وقد عرفت في كل من العالم العربي والعالم الغربي ، وترجمت إلى عدة لغات ، ومن أهمها :

1) كتاب الشفاء : يقع هذا الكتاب في ثمانية عشر مجلدا تناول فيه المؤلف المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلاهيات . وطبع هذا الكتاب

---

(1) طالع مؤلفات ابن سينا للاب جورج قنواتي ، القاهرة 1950 .

الذي تعددت نسخه عدة طبعات أجودها الطبعة العلمية باشراف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ، وقد صدر منه بعض الأجزاء (2) .

2) كتاب النجاة : وهو مختصر كتاب الشفاء . طبـع مـع كتاب القانون في الطب بروما سنة 1593 وفي مصر سنة 1331هـ/1911م .

3) كتاب الإشارات والتنبيهات : وهو آخر ما صنفه ابن سينا في الحكمة ، ولعله من هذه الناحية يمثل الموقف الحقيقي لابن سينا في الحكمة والتصوف . تناول فيه مبحثي المنطق والحكمة . وطبع عدة مرات آخرها بتحقيق سليمان دنيا في أربعة أجزاء كما ترجمته الى اللغة الفرنسية الاستاذة غواشون (A. Goichon) .

4) كتاب الحكمة المشرقية : لم يصلنا منـه غير الجـزء الخاص بالمنطـق ، وقد أثار غموض عنوان هذا الكتاب مناقشات عديدة ، وذهب البعض إلى أنـه خاص بالتصوف وسمّوه حكمة المشرقيين . وجاء نلينـو Nallino وبيّن أن الكتاب يسمى بهذا الاسم لأنه خاص بفلسفة الشرقيين المقابلة لفلسفة الغربييـن .

5) كتاب القانون في الطب : يتكون هذا من خمسة أجزاء وبه عدد كبير من الفنون والتعاليم والفصول والمقالات . ترجم الى اللاتينية منذ زمن بعيد ، وكان أساس دراسة الطب في جامعات اوروبا الى آخر القرن السابع عشر . طبع عدة طبعات : في روما سنة 1593 وفي الهند 1323/1904م الخ .

ــ كما أن لابن سينا رسائل مختلفة في الحكمة والأخلاق وعلم النفس والمنطق وله قصائد منها القصيدة العينية في النفس والتي هي موضوع هـذا الكتاب .

---

(2) ان جهود المجلس حثيثة لاصدار بقية أجزاء هذا الكتاب الثمين .

هذه هي الشخصية التي كان اشراقها واضحا وشاملا على كل الاتجاهات الفكرية في الاسلام ، بل ان اشراقها وصل الى بلاد الغرب . وغذت عقول أجيال متعددة بما تركته من آفاق المعرفة . هذه الشخصية وغيرها من فلاسفة الاسلام رغم قلة عددهم قد طبعوا بفلسفتهم وأفكارهم عدة إتجاهات ثقافية ، بل نلاحظ كما هو بالنسبة للإسماعيلية محاولة عدّ بعض الفلاسفة من بين مفكريهم. فقد عدّوا رسائل إخوان الصفاء من جملة تراثهم الفكري، ونسبوها إلى مؤلف من بين أئمتهم . وقاموا بشرح قصيدة ابن سينا وجعلوا منها تعبيرا عن فلسفتهم ومن مؤلفها أحدّ حكمائهم .

وفي الدراسات الإسماعيليّة المتأخّرة عدّ مصطفى غالب في كتابه « أعلام الإسماعيلية » من بين مفكري الإسماعيلية : المعري ، وجلال الدين الرومي ، وابن سينا ، وشهاب الدين السهروردي ، وفريد الدين العطار ، وفخر الدين الرازي وغيرهم . كما نجد عبد الله نعمة في كتابه « فلاسفة الشيعة » يعد أيضا كل هؤلاء من الشيعة الإثني عشرية ، وحجته ما عدّه صاحب كتاب « أعيان الشيعة » من الشيعة ، وكذلك علي بن فضل الله الجيلاني في كتابه « توفيق التطبيق في إثبات أن الشيخ الرئيس من الإمامية الإثني عشرية » (3) ، لتقارب آراء ابن سينا في بعض المسائل مع مذهب الشيعة الإمامية . ولقد استهوى التقارب في التفكير الباحثين من الشيعة الإثني عشرية والإسماعيلية فضموا هذه الشخصيات إلى مذهبهم . وهذا التداخل الفكري كان له أثر بليغ في إسدال الستار على الهوية الحقيقية لبعض التراث الفكري كمثل رسائل إخوان الصفاء التي عدها أكثر الباحثين تراثا إسماعيليا .

ولا نشك أن الظروف السياسية التي سادت عصر بني أمية وعصر بني العباس قد ساعدت على هذا التداخل الفكري ، فلقد تأزمت العلاقات

---

(3) تحقيق محمد مصطفى حلمي القاهرة 1954 .

الإجتماعيـة التي تتحكم فيها الإتجاهات السياسية . ووقع تتبع كثير مـن الطوائف والأشخاص – وبعض منهم من كبار المفكرين – بالقتل والصلب والتشريد بتهمة التمرد أو الثورة أو الزندقة ، وأخفي ما عدا ذلك . ونعتقد أن هذه الوضعية التي تخفي أكثر من سؤال وتنم عن اختلاف في الأمور العقائدية والفكرية دفعت بكثير من المفكرين إلى استخدام قاموس موحّد في تعبيرهم ، فكانت لهجتهم متقاربة ، لكن هذه اللهجة التي تبدو متقاربة قد تعبر عن وجهات نظر مختلفة ! ومن جهة أخرى قد تختلف العبارات ويبقى المعنى واحدا ، لذلك ليس من الهيّن التمييز بين المذاهب والمعتقدات التي فقدت هويتها .

وإذا كنا قد عرفنا حقيقة اتجاه كثير من المفكرين على أنهم شيعة فإنه قد يصعب علينا معرفة كثير ممن يُدعَوْن بالسنّيين إذا كانوا فعلا سنيين ، لأنهم اختاروا – فيما يبدو – أن يترفّعوا على كل نوع من المذهبية . ومن جهة أخرى اتهم الكثير منهم بالالحاد والزندقة لاخضاعهم العقيدة إلى الفكر ، ويكفي أن نلقي نظرة على التراث الإسلامي الضخم لمؤرخي الفرق وبعض الفقهاء والقضاة لنعرف أن كثيرا من المفكرين لم يحشروا أنفسهم داخل حدود مذهبية ضيقة ، ولكنهم نطقوا باسم الفكر وأعلوا من شأنه (4) . ورغم السيل الوابل من الاتهامات والتهجمات على الفلسفة والفلاسفة فإن إشعاع الفلاسفة الفكري كان قويا وتأثيرهم في مختلف الاتجاهات بعيدا . وهؤلاء الإسماعيلية كما تخبرنا الرسالة المفيدة ، جعلوا من ابن سينا أحد مفكريهم الكبار ، وإلا فعبارة : قدّس الله روحه لا تقال لغير الأئمة . وجعلوا من مؤلفاته أحد مراجعهم في الفكر والعقيدة .

(4) انظر ما ذكره ابن رشد في خصوص المتكلمين ، وردوده على الغزالي والاشعري وغيرهما في كتبه تهافت التهافت والكشف عن مناهج الأدلة وفصل المقال .

القصيدة العينية في النفس :

خصص ابن سينا لدراسة النفس كتبا ورسائل متعددة (5) . ومن بين مؤلفات الرئيس التي اهتم الباحثون بدراستها القصيدة العينية في النفس . فقد شرحت شروحا متعددة كما ترجمت إلى اللغة الفرنسية (6) .

ومن بين هذه الشروح (7) ، شرح عبد الرؤوف المناوى (8) ، وشرح نعمة الله الجزائري الشوشتري الموسوي الحسيني (9) . كما شرحها أيضا أحد أعلام الفكر الإسماعيلي وهو علي بن محمد بن الوليد صاحب كتاب دامغ الباطل الذي دحض فيه المؤلف اتهامات الغزالي في كتابه فضائح الباطنية أو المستظهري .



صاحب الرسالة :

أما ابن الوليد فهو شارح العينية وهو اسماعيلي المذهب غير ان ما نعرفه عنه وعن غيره من مفكري الاسماعيلية قليل وقليل جدا . ولم نجد من بين تراثهم الضخم غير كتاب واحد هو « عيون الأخبار » لإدريس عماد الدين الذي عاش في القرن التاسع الهجري ، والذي يقدم فيه نبذا من تراجم الدعاة . أما كتاب الفهرسة (10) للشيخ اسماعيل بن عبد الرسول الملقب

---

(5) نذكر منها الفن السادس من الطبيعيات من كتاب الشفاء ، طبع عدة طبعات اجودها الطبعة التي حققها الأب جورج قنواتي وسعيد زايد بمناسبة الذكرى الالفية للشيخ الرئيس ، القاهرة 1975. كما ترجمه إلى اللغة الفرنسية المستشرق يان باكوش Jean Bakosh وطبع في براغ Prague 1956. وفصول من كتاب النجاة. وعدة رسائل منها رسالة أحوال النفس التي نشرها أحمد فؤاد الاهواني ، القاهرة 1952 .

(6) ترجمها كارادي فو Carra de Vaux ونشرها مـع النص بالعربية وعلق عليها (المجلة الآسويـة ج 4 سنة 1899. كما ترجمهـا هنـرى ماسـاى H. Massé (مجلة القاهـرة La Revue du Caire جوان 1951 ص 917 .

(7) انظر بروكلمان Brockelmann ملاحق ج 1 ص 812 ، وكذلك مقال «ابن سينا» في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة . ومؤلفات ابن سينا للأب قنواتي ، القاهرة 1950 .

(8) شرح قصيدة النفس العينية لابن سينا ، مط الموسوعات 1900/1318 .

(9) نشر هذا الكتاب وحققه علي محفوظ ، طهران 1954 .

(10) حققه وعلق عليه علينقي منزوى ، طهران 1966 .

بالمجدوع من رجالات القرن الثاني عشر هجري ، فهو كما يدل عليه عنوانه ، خاص بالمؤلفات الاسماعيلية ، ولا نجد فيه شيئا عن حياة المؤلفين . وهذا الاهمال من طرف الاسماعيليين له ما يبرره ، اذ العقيدة الاسماعيلية تجعل الامام هو المعلم على الاطلاق ، لذلك نلاحظ كثيرا من الدعاة مثل القاضي النعمان وغيره يشيرون في بعض مؤلفاتهم الى أنها من املاء أئمتهم . ولا شك أن أيّ داع مهما بلغت رتبته لا ينسب لنفسه سرا من أسرار الدعوة أو رأيا من الآراء ، لذلك قلّ هذا النوع من التأليف . اما المؤلفات الاسماعيلية فكانت تحمل أسماء مؤلفيها وذلك كما يقول الكرماني في كتابه « راحة العقل » (ص 19) « حقيق على من يؤلف كتابا أن يميزه بتعريفه إياه واثبات نسبه عما سواه لئلا يكون معدودا فيما هو مشكوك فيه » .

وقد اعتمد ايڤانوف في كتابه المرشد الى الادب الاسماعيلي (11) على كتاب عيون الاخبار الذي لا يوجد الا عند الاسماعيليين أو عند قلة من الخواص كما اعتمد في مرشده على فهرسة المجدوع .

ونحن إذ نترجم لشارح القصيدة فإننا نعترف بأن ما نقدمه لا يكفي لتكوين صورة كاملة عن ابن الوليد وعن تربيته الدينية والعلمية التي خولت له الصعود في مراتب الدعوة ، هذا مع الملاحظة أنه لا توجد عنه مادة أغزر في المصادر التي وصلتنا .

كان علي بن محمد بن الوليد المتوفى سنة 612هـ أحد دعاة اليمن الذين انفصلوا عن الدعوة بمصر منذ أن أعلنت حجة الدعوة الإسماعيلية في اليمن ، الملكة أروى الصليحية ، تأييدها للإمام الطيب بن الآمر ، وبذلك وقفت موقف المعارضة للخليفة عبد المجيد ابن عم الآمر الذي استقل بالإمامة ، واستمرت الدعوة باليمن مستقلة عن مركز الدعوة بمصر ومناهضة لها إلى أن سقطت مصر في أيدي الايوبيين ، وبسط هؤلاء أيديهم على اليمن .

(11) W. Ivanow : A Guide to Ismaili Literature

إبتدأ علي بن الوليد كمأذون ومساعد للداعي المطلق حاتم بن إبراهيم الحامدي ، ورتبة الداعي المطلق أعلى مرتبةٍ في مراتب الدعوة بعد اختفاء الإمام الطيب ، وصاحب هذه الرتبة هو المسؤول عن الدعوة ، واستمر هذا النظام في هذا الفرع إلى اليوم . وأسندت إلى ابن الوليد مهمة تنظيم الدعوة بصنعاء ، كما اهتم من جهة أخرى بحل المشاكل التي تعترض الدعاة ؛ ثم بعد وفاة حاتم بن إبراهيم تولى ابن الوليد منصب الداعي المطلق .

لكن هؤلاء الدعاة لم يستطيعوا أن يقوموا بأعباء الدعوة خير قيام وذلك أنه وقع فصل الدعوة عن السياسة بعد موت الآمر من ناحية ومن ناحية أخرى تتبع الايوبيون بعد أن سقطت الدولة الفاطمية ، الإسماعيليين في كل مكان وحتى في اليمن ، لذلك لم يجد الدعاة الجو الملائم ولا الهدوء السياسي ليجعلوا من الدعوة قوة تجابه الأحداث الخطيرة ، فمال الإسماعيليون إلى التستر والتخفي بعد أن اكتسح الايوبيون اليمن وبسطوا نفوذهم عليها .

غير أن هذا الوضع المضطرب وإن كان له تأثير مباشر على سير الدعوة فإنه لم يمنع الدعاة من مزاولة نشاطهم الفكري والقيام بالتأليف والكتابة . فكان التراث الإسماعيلي في هذه الفترة غزيرا وان اتّسم بالتكرار والشروح . وقد استطاع ابن الوليد الذي واجهته أحداث وخصومات كثيرة كان البعض منها مع أخوته أن يجعل حياته حافلة بالنشاط الفكري . فقد ترك لنا عـدة مؤلفات تشهد له بذلك . وأغلب كتاباته تناولت نفس المواضيع التي كتب فيها مفكرو الاسماعيلية في العصر الفاطمي ، كما نلاحظ التزامه بالفلسفة الاسماعيلية التي وضع أسسها حميد الدين الكرماني . كذلك خصص ابن الوليد لآراء دعاة الدولة الفاطمية ومؤلفاتهم مكانة هامة في كتاباته ، فنجده يقتبس من مؤلفات جعفر بن منصور اليمن والقاضي النعمان والمؤيد ، ورسائل إخوان الصفاء . وقد جرت عادة دعاة الدعوة الجديدة عند ذكرهم لنص

من نصوص الرسائل أن يقولوا : قال الشخص الفاضل صاحب الرسائل ، وبذلك احتفظوا بسرية مؤلفها .

وكما ذكرنا سابقا ، فإن فهرسة المجدوع وكتاب المرشد للأدب الإسماعيلي لايفانوف بقيا المصدرين الوحيدين اللذين يمكن بهما معرفة مؤلفات ابن الوليد ، التي منها :

1) كتاب دامغ الباطل وحتف المناضل (12) وهو مجلد ضخم يتألف من 1240 صفحة . دحض فيه إدعاءات الغزالي ضد الدعوة الإسماعيلية في كتابه فضائح الباطنية أو المستظهري (13) .

2) الذخيرة المحتوي على ما يصفي الصورة وينور البصيرة (14) . وفيه يقول إيفانوف : انه من أعظم كتب الدعوة السرية في الفترة اليمنية الجديدة . وفي مقدمة هذا الكتاب يذكر المؤلف أنه لا يُسمح بقراءته إلا بإذن من داعي الجزيرة .

3) ديوان شعر (15) مدح به دعاة اليمن ، وردّ فيه على مزاعم الفرقة المجيدية وهي التي يمثلها الخليفة عبد المجيد الذي استلم الخلافة بعد الآمر .

4) رسالة في معنى الاسم الأعظم (16) ، يقول إيفانوف : انها رسالة صغيرة بحث فيها المؤلف مسألة الجفر .

5) لب الفوائد وصفو العقائد (17) ، وهي رسالة صغيرة تحتوي على مبادىء العقيدة الإسماعيلية للمبتدئين ، وبحث فيها المؤلف مسألة المبدأ والمعاد .

---

(12) المرشد رقم 234 وص 69 ، فهرسة ص 93–94 .
(13) نشره جولد تسيهر Goldziher 1916 ، واعاد نشره عبد الرحمن بدوي في القاهرة 1964
(14) المرشد رقم 235 ص 70 ، فهرسة : ص 278–300 .
(15) المرشد رقم 236 ص 71 ، فهرسة ص 290 .
(16) المرشد رقم 237 ص 71 .
(17) المرشد رقم 238 ص 71 ، فهرسة : 257 .

6) ضياء الألباب المحتوي على المسائل والجواب (18) . كتاب يبحث في مسائل مختلفة من العقيدة الإسماعيلية الظاهر منها والباطن ويحتوي على إثنتين وثلاثين مسألة .

7) رسالة الإيضاح والتبيين في كيفية تسلسل ولادتي الجسم والدين(19)، يبحث المؤلف فيها عن دوري الكشف والستر وعن حدود الدعوة ومسألة الولادة الجسمانية والولادة النفسانية .

8) رسالة جلاء العقول وزبدة المحصول (20) وفيها ثمانية وعشرون فصلا تدور حول المواضيع التالية : التوحيد ، الخلقة الجسمانية ، الخلقة النفسانية ، والثواب والعقاب .

9) نظام الوجود وترتيب الحدود (21) ، يبحث هذا الكتاب عن الحدود الإسماعليّين المعاصرين للمؤلف . وقد احتفظ لنا بهذه الرسالة الحسن بن نوح في كتابه « الازهار » في الجزء الثالث .

10) تحفة المرتاد وغصة الأضداد (22) : هذه الرسالة في نقض مزاعم الإسماعيلية المجيدية ، وفيها يؤكد المؤلف إمامة الطيب بن الآمر .

11) تاج العقائد ومعدن الفوائد (23) : من الكتب الهامة التي تناولت بالبحث الجانب العملي أو الظاهر والجانب العلمي أو الباطن للعقيدة الإسماعيلية .

---

(18) المرشد رقم 239 ص 72 ، فهرسة 229–237 .

(19) المرشد رقم 240ص 72 ،فهرسة ص 153 . وقد نشرها ستروتمان Strothmann ضمن أربعة كتب إسماعيلية قوتنقن Gottingen 1943 – ص 137–158

(20) المرشد رقم 241 ص 72 . فهرسة 200–201 . نشرها عادل العوا من جملة نصوص أخرى بعنوان « منتخبات إسماعيلية » دمشق 1958 ص 89–153 .

(21) المرشد رقم 242 ص 72 ، فهرسة ص 80 .

(22) المرشد رقم 243 ص 73 ،فهرسة ص 153 . وقد نشرهـا ستروتمان Strothmann ضمن أربعة كتب إسماعيلية ص 170 .

(23) المرشد رقم 244 ص 73 ، فهرسة ص 124–127 . ونشره عارف تامر بيروت 1967 .

وقد لخّصه إيڤانـوف في كتابه عقيدة الفاطميين A Creed of the Fatimids بمباي 1966 .

12) مجالس النصح والبيان (24) : هذا الكتاب الذي يشتمل على 140 مجلسا لم يصلنا منه غير 40 مجلسا من 101 إلى 140 . وهو كتاب في التربية النفسانية ويبحث كذلك في مسألة بداية العالم ونهايته وفي تأويل بعض الآيات القرآنية .

13) مختصر الأصول (25) : كتاب في المذاهب والفرق ، يذكر فيه المؤلف عقيدة بعض الفرق الإسلامية من حشوية ومعتزلة وزيدية ومعطلة .

14) لب المعارف (26) : تشتمل هذه الرسالة على سبع مسائل متفرقة تتناول موضوع الدعوة الإسماعيلية . وقد قمنا بتحقيق هذه الرسالة ودراستها والتعليق عليها وترجمتها إلى اللغة الفرنسية ضمن ثلاثة نصوص إسماعيلية (أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة من جامعة باريس 1970) .

16) ملقحة الأذهان ومنبهة الوسنان (27) : احتفظ لنا بهذا النص محمد ابن الطاهر الحارثي في كتابه مجموع التربية ج 1 ص 99 أ — 108 أ . مخطوط معهد الدراسات الشرقية بلندن تحت رقم 26850 . وقمنا كذلك بتحقيقها ودراستها والتعليق عليها وترجمتها إلى اللغة الفرنسية ضمن ثلاثة نصوص إسماعيلية .

16) **المفيدة في إيضاح ملغز القصيدة** (28) وهي هذه الرسالة التي نضعها بين يدي القراء .

---

(24) المرشد رقم 250 ص 74 ، فهرسة ص 140 .
(25) المرشد رقم 251 ص 74 ، فهرسة ص 123—124 .
(26) المرشد رقم 245 ص 73 ، فهرسة ص 244—246.
(27) المرشد رقم 233 ص 69 ، فهرسة ص 131 .
(28) المرشد رقم 246 ص 73 ، فهرسة ص 201 .

تناول فيها ابن الوليد شرح قصيدة ابن سينا من وجهة نظر إسماعيلية . والحقيقة أن الأسلوب الرمزي الذي صيغت به هذه القصيدة يساعد على إعطائها أكثر من معنى . لذلك يمكن أن نعتبر شرح ابن الوليد منسجما تماما مع الفكرة العامة للقصيدة .

ولقد أجمع مفكـرو الإسلام على اعتبـار أنّ النفس نزلت مـن العـالم الروحاني إثر الخطيئة التي ارتكبتها والتي دفعت بها إلى الاتصال بالجسم بل إلى السقوط في بحر الهيولي وظلمات المادة . دخلت الجسم مكرهة بعد أن أظلم جوهرُها وهو التعبير عنها بالورقاء التي هي الحمامة الرمادية اللون ويرجع هذا التلون إلى ما أصابها من التكثّف والظلمة . وهنا نلاحظ أن التعليق (29) الذي ذكره كارا دي فو Carra de Vaux من أن اللون الرمادي لا يرى في الهواء ، ولهذا شبه النفس الناطقة بها لا يستقيم في نظرنا خصوصا أن اللون الرمادي أو الأسود هو علامة الحزن ويدل كذلك على نوع من الظلمة أصابت النفس بعد وقوعها في الخطيئة .

ويستمر الشارح في ذكر القصة التي تمثل الرحلة الطويلة التي قامت بها النفس منذ سقوطها عن مرتبتها ونزولها من العالم العلوي وترديها في القمص التي تبتدىء بالمعادن وتنتهي بالانسان الذي هو غاية الطبيعة ونهايتها وغـرض البارى أو كما يقال : أول الفكرة وآخر العمل . هنا وفي هذه المرحلة يتحدد المصير النهائي للنفس حيث يتم لها الإختيار اما إلى النعيم الابديّ في جوار الديّان واما إلى العذاب في بحر الهيولي وأسر الطبيعة .

---

(29) كارادى فو ، قصيدة ابن سينا في النفس
C. de Vaux, La Kaçidah d'Avicenne sur l'âme, J.A. Juillet-août 1898, p. 159.

مصادر شرح القصيدة :

أشار ابن الوليد في شرحه إلى عدة مؤلفين واستشهد بنصوص من مؤلفاتهم . لكن الجدير بالذكر هو أن بعض هذه المؤلفات لم يصلنا بتاتا أو أننا لم نسمع به ككتاب مجالس التنظف لطهارة النفوس الذي نسبه الشارح إلى إخوان الصفاء . وكتاب الذات والصورة لحميد الدين الكرماني . ونشير هنا إلى أن إيڤانوف في المرشد إلى الأدب الإسماعيلي ص 97 اعتبر هذا المؤلف من الكتب التي لم يعرف صاحبها . كما يؤكد ابن الوليد نسبة جامعة الجامعة إلى إخوان الصفاء .

أول هؤلاء المفكرين الذين لهم أهمية خاصة في هذه الرسالة هو حميد الدين الكرماني ، وهو بلا منازع أكبر فيلسوف إسماعيلي ، عاش في عصر الحاكم الخليفة الفاطمي ، ودافع عن إمامته كما دحض مزاعم كل الذين اعتقدوا بالوهية الحاكم ، وكان من أكبر الدعاة ، ارتقى إلى منصب حجة فكان تحت إشرافه العراق العربي والعراق الفارسي لذلك سمي بحجة العراقين .

وترك عدة كتب في فلسفة العقيدة الإسماعيلية ومشكلة الإمامة . نذكر منها (30) :

راحة العقل (31) . يعتبر هذا الكتاب أهم ما أنتجه الفكر الإسماعيلي إذ يحتوي على فلسفة الإسماعيلية وعقيدتهم . وإننا لا نبالغ إذ نقول بأنه يعتبر في مصاف أمهات الفكر الفلسفي الإسلامي . وقد وضعه الكرماني حسب خطة واضحة وهي خطة مدينة طبيعية مكونة من سبعة أسوار ، لأن الكرماني وضع خطة لمدينة فاضلة حسب قانون الموازنة أو موازنة المخلوقات أي إن كل ما

---

(30) انظر فيما يخص مؤلفات الكرماني . ايفانوف Ivanow ، المرشد ص 40–45 .

(31) نشر هذا الكتاب محمد كامل حسين ومصطفى حلمي ليدن 1953 .

في العالمين الروحاني والمادي يماثل بعضه البعض . لذلك وضع الكرماني نظام مدينة الدعـوة ليتمكن الإنسان من العروج في مراتب المعرفة حتى يتخلص نهائيا من شوائب المادة ويأخذ مكانه في المدينة الروحانية التي كان فيها قبل وقوعه في الخطيئة .

وله كتاب الرياض (32) ألفه لإصلاح ما وقـع فيه كل من السجستاني والرازي من اخطاء ، ويبدو فيه الكرماني فيلسوفا صلبا . يريد أن يجمع مفكري الإسماعيلية حول فلسفة واحدة غير متسامح مع أيّ كان أن يبدي آراء خاصة أو أن يخالف الآراء السائدة ، ورغم أن الكرماني متأخر عن السجستـاني والرازي فإنه لم يراع السبق الزمني ولا مكانة هؤلاء داخل الدعوة ، بل ناقش آراءهما وأصلحها .

وله كذلك المصابيح في إثبات الإمامة (33) والهـادي والمستهدي وكتاب معالم الدين وكتاب الذات والصورة ، ومجموعة رسائل (34) .

واستخـدم ابن الوليـد مؤلفـات إخـوان الصفـاء التي نذكر منها : الرسائل (35) وهي التي اقترنت باسم إخوان الصفاء ولم يشك أحد في نسبتها إليهم غير أنه وقعت فيها تغييرات جزئية من تقديم بعض الرسائل على بعض الخ . ولم تتوصل البحوث الغزيرة إلى تحديد الشخص (أو الأشخاص) الذي ألف الرسائل وبقية التراث الذي نسب إليهم ، رغم أن بعض الباحثين يميل إلى عدّ الرسائل جزءا من التراث الإسماعيلي معتمدين ، كما ذكرت ، على التشابه بين الرسائل والمذهب الإسماعيلي ، وإن كان هذا التشابه لا يوجد فقط بين المذهبين بل هو عام بين كل المذاهب الشيعية . أما النصوص القديمة

---

(32) نشره عارف تامر ، بيروت 1960 .

(33) نشره مصطفى غالب ، بيروت 1969 .

(34) انظر مجموع أعمال الكرماني في المرشد لايفانوف Ivanow ص 40—45 .

(35) وقد طبعت الرسائل عدة طبعات منها طبعة بومباي وطبعة القاهرة بتحقيق وتقديم طه حسين وأحمد زكي القاهرة 1928 ، وطبعة بيروت بتحقيق بطرس البستاني بيروت 1957 .

التي تحدد مؤلفها أو مؤلفيها فليس لنا غير النص الذي ذكره التوحيدي في كتاب الامتاع والمؤانسة (36) . والجدير بالذكر أن مؤلف هذه الرسائل قيـل انه معتزلي وقيـل هو من الشيعـة الاثني عشرية وقيل هو إمام من أئمة الإسماعيلية ، وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وقيـل غيـر ذلك (37) .

وقد وقع الاعتناء بالرسائل اعتناء خاصا ، فكتبت حولها مقالات عديدة وكتب ، ونشير هنا إلى أن إيف مركاي Yves Marquet قام بدراسة عنوانها فلسفة الاخوان نال بها شهادة الدكتوراه ، كذلك درس زميلنا أحمد التريكي الآراء الافلوطينية والتفسير الصوفي في مسألة الخلق عند الاخوان نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة باريس سنة 1973 . ولم يزل الاعتناء بالرسائل متواصلا والبحث مستمرا ، ونأمل أن يقع العثور على كل ما ضاع من تراثهم حتى نخرجهم نهائيا من النظرة الزائفة التي ألحقها بهم أصحاب كتب الفرق وأكثر الباحثيـن .

ولإخوان الصفاء رسالة الجامعة (38) وهي رسالة مكونة من جزءين عرفت بنسبتها إلى الحكيم المجريطي الأندلسي المتوفى سنة 395هـ ، غير أن ذكر هذه الرسالة من طرف إخوان الصفاء في رسائلهم مرات عديدة ، واجماع كل الباحثين القدامى على نسبتها إليهم والاتفاق في الأسلوب والمواضيع بين الرسالة الجامعة ورسائلهم ، ومطابقة الرسالة الجامعة للأوصاف التي ذكرها الإخوان في الرسائل ، كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأنها من مؤلفات إخوان الصفاء ، وأن المجريطي لم يكن في الحقيقـة سوى جامع لاشتاتها المبعثرة .

(36) أبو حيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ج 2 ص 3–11 .

(37) انظر الآراء الدينية والفلسفية للاسماعيلية الفاطمية للمحقق منشورات الجامعة التونسية 1978.

(38) نشرها جميل صليبا . دمشق 1958 في جزءين .

ولهم أيضا رسالة « جامعة الجامعة » ، ولعلها أدعى إلى الشك ، وذلك أن إخوان الصفاء لم يشيروا إليها في رسائلهم . ثم أن هذه الرسالة التي نشرها عارف تامر في بيروت تكاد تكون عبارة عن فصول منتزعة من رسالة الجامعة ، لكن ذكر هذه الرسالة من طرف ابن الوليد يؤكد وجود مؤلف بهذا العنوان لإخوان الصفاء . بقي أنه يبدو أن رسالة جامعة الجامعة التي اعتمد عليها الشارح هي غير ما وقع نشره ، وذلك أن النص الذي استشهد به ابن الوليد لا يوجد في الرسالة المنشورة .

ونذكر مؤلفا رابعا ينسبه شارح القصيدة إلى إخوان الصفاء بعنوان : كتاب مجالس التنظف لطهارة النفوس . لم نعرف إلى حدّ الآن أن لإخوان الصفاء آثارا غير المتداولة المعروفة وهي الرسائل ورسالة الجامعة ثم رسالة جامعة الجامعة ، غير أن إخوان الصفاء يؤكدون في رسائلهم أن لهم كتبا أخرى غير الرسائل (39) ، ولعل هذا الكتاب ، الذي حسب النص الذي قدمه الشارح يشبه الرسائل في أسلوبه ، هو من بين هذه الكتب المغمورة التي تمكننا إن تم العثور عليها من معرفة شاملة وصادقة لمجموع أعمال إخوان الصفاء ومدى تأثيرهم الحقيقي في غيرهم من المفكرين والتيارات الفكرية .

المصدر الثالث الذي اعتمد عليه الشارح هو الشاعر والداعي الخطاب ابن الحسن بن أبي الحفاظ الهمداني . أحد الدعاة في جزيرة اليمن ، توفي في صفر 533هـ . وقد قام بدور نشيط في تأييد الدعوة وإقامة أسسها في فترة زال فيها الإطمئنان والأمن إثر تمزق الدولة الفاطمية ، وقد ساند الملكة أروى الصليحية التي دافعت عن وجود الإمام الطيب ، ومدحها بأشعار كثيرة .

(39) جاء في رسالة الجامعة : « ... واقرأ عليهم الكتب المصونة والاسرار المخزونة والعلوم المكنونة بشرح ما في هذه الرسالة الجامعة وما في غيرها من الكتب التي ألقيناها إليك وأودعناها عندك لحياة من قبلك ، وهى المدارس الاربع والكتب السبعة والجفران والرسائل الخمس والعشرون والرسائل الاحدى والخمسون والرسالة الجامعة ، فعرفهم جميع ذلك ... » الرسالة الجامعة ج 2 ص 399 .

ويقول الداعي إدريس عماد الدين في كتابه عيون الأخبار (40) ، ان الخطاب بن الحسن كان أخا الملكة من الرضاع ، وكان ذا منزلة جليلة ، وهو أرفع الدعاة بعد الداعي الذؤيب بن موسى — الذي هو أول داع مطلق في اليمن بعد انفصال هذه الجزيرة عن مركز الدعوة بمصر — وعاضده في إقامة الدعـوة الآمريـة والطيبيـة في أوان الحرة الملكـة السيدة الصليحية وبعد وفاتها ؛ وكانت له عندها مزية جليلة ومرتبة وفضيلة ، وهو من دعاة أيام الظهور والستر . وكان الخطاب عالما وشاعرا وحكيما . ينسب إليه ديـوان شعر في مدح آل البيت وفي مسائل العقيدة الإسماعيلية ، وقد قدم حسين بن فيض الله الهمداني في كتابه : « الصليحيون ... » نماذج من شعره .

ومن تصانيفه أيضا « غاية المواليد » ، ورسالة النفس (41) .

وآخر المفكرين الذين استشهد بأقوالهم هو علي بن الحسين بن الوليد الذي توفي سنة 554هـ/1159م ولم يعمّر طويلا . وقد كان أحد الدعاة في اليمن . ساعد الداعي المطلق إبراهيم بن الحسين الحامدي (توفي سنة 557هـ) على شؤون الدعـوة .

ومن آثاره (42) رسالة البسملة حفظها لنا الحارثي في كتابه مجمـوع التربية ورسالة في البحث على الفرقة النزارية نجدها كذلك في مجموع التربية . وله أيضا تحفة الطالب وأمنية الباحث الراغب في المبدا والمعاد والمعروفة برسالة الضلع . وفي هذه الرسالة بسط علي بن الحسين مسألة النطقاء وإمامة الطيب بن الآمر ، ومعرفة الموجودات ، واستشهد بأقوال من حكماء اليونان كسقراط وارسطو . وبين علي بن الحسين أن النفس تنزل بالخطيئة ثم تصعد بعد أن تمر بالقمص الطبيعية إلى مقرها الروحاني .

---

(40) نقلا عن كتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن » للهمداني ، ص 194 .

(41) انظر ايفانوف Ivanow ، المرشد ص 51–52 .

(42) انظر ايفانوف Ivanow ، المرشد : 54 ؛ الصليحيون ص 273 .

هذه جملة المفكرين الذين أشار إليهم ابن الوليد في تحليله القصيدة . وهذه طريقة مفكّري دعوة اليمن الجديدة إذ تقوم مؤلفاتهم على جانب كبير من نصوص مفكّري الدعوة الفاطمية .

ترتيب القصيـدة :

إن القصيدة العينية التي ذكرها ابن الوليد مكونة من عشرين بيتا ، وتضيف أبعض المخطوطات البيت التالي :

نَعِمْ بِرَدّ جَوَابِ مَا أنَا فَاحِصٌ عَنْهُ ، فَنَارُ العِلْمِ ذَاتُ تَشَعْشُعِ

وقد وقع في ترتيب القصيدة تقديم وتأخير في البيتين 11 و12 ، كما وقع بعض الاختلافات في النص بين القصيدة كما يوردها الشارح وبين النص الأكثر تداولا . ولقد أشرنا إلى هذا الاختلاف في الحاشية عند تحقيق نص القصيدة .

ولإتمام الفائدة رأينا أن نذكر في الحاشية الشرح المختصر الذي أخذه كارا دي فو Carra de Vaux من بعض المخطوطات حتى تتضح للقارىء أبعاد الشرح الإسماعيلي . ثم أننا قمنا ببعض التعليقات الهامة والتي ترفع كل تعقد وغموض . ونشير أخيرا إلى أننا قابلنا بعض النصوص التي استشهد بها المؤلف لبعض الدعاة على أصولها المطبوعة مثل رسائل إخوان الصفاء ، ورسالة الجامعة ، وراحة العقل للكرماني .

وصف المخطوطة :

اعتمدنا في تحقيق هذه الرسالة على نسخة فتوغرافية سلمها لنا صديق .

تحمل الورقة الأولى عنوان : « الرسالة المفيدة » دون ذكر لمؤلفها ، غير أننا نقرأ في مقدمة المؤلف العنوان الكامل وهو « المفيدة في إيضاح ملغز القصيدة » . وذكر المؤلف أن هذه القصيدة هي قصيدة منسوبة إلى الرئيس ابن سينا وهي المعروفة بالقصيدة العينية .

لا نجد في هذه النسخة ذكرا للمؤلف . وينسب المجدوع (43) هذه الرسالة إلى سيدنا علي ابن محمد وهو علي بن محمد بن الوليد . ويذكرها إيڤانوف (44) W. Ivanow من بين مؤلفاته .

وتحتوي هذه النسخة على 49 ورقة غير مرقمة . وعدد الأسطر في الصفحة الواحدة 19 سطرا . والخط واضح . والناسخ هو علي بن حمود بن صالح شبيل الهمداني ، فرغ من نسخها يوم الجمعة 6 جمادى الأولى سنة 1350هـ ، في عهد الداعي المطلق طاهر سيف الدين ، وهو الداعي الحادى والخمسون من فرع الإسماعيلية الداودية (فرع الهند) الذي توفي سنة 1975 .

(43) الفهرسة ص 201 .
(44) المرشد ص 73–74 (رقم 246) .

الرسالة المفيدة

الحمد لله مُنَوِّر بصائر أتباع آل محمّد – عليهم السلام – بنور الرشاد، ومطلعهم بموادهم الرحيمة من أسرار الخلقة على ما غاب عن المتكبرين عن طاعتهم من العباد، والنازل فيهم وفي جدّهم المصطفى – صلوات عليهم أجمعين – « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » (45). نحمده إذ من علينا باتباعهم، ونشكره إذ جعلنا من أشياعهم، حمْدَ مَن عرف موقِعَ الحمد والشكر فحمِد وشكر، وأوذِيَ في محبّتهم فرضِيَ احتسابا وصبر، ونشهد أن لا إلاهَ إلا الذي حجب العقول عاليَها ودانيَها عن أن تصفه، فخضعت مُذعنة مُقرّة بالحيْرة والقصور، ومنع الخواطر عن أن تكيّفه فأهطعت معرفة بالعجز عما رامته والحسور؛ وكيف يحيط المحدث والمصنوع بمن أحدثه وصنعه، أو يجد المخلوق المخترَعُ سبيلا إلى صفة مَن خلقَه واخترعه، جلّ ثناؤه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرا (46). وأشهد أن محمّدا أفضل منتجب اختاره لأداء رسالته، وأشرف مبعوث ومقرّب بعثه لهداية بريته، الرحمة الممثلة للأبصار بالهيكل الإنساني الحائز من مراتب التأييد المقام القدساني، صلى الله عليه وعلى وصيّه (47) وابن عمّه وقاضي ديْنه وكاشف

---

(45) الرعد، 7.

(46) من قوله: ونشهد أن لا إله إلا الله الذي حجب العقول. – إلى قوله – علوا كبيرا، حدد المؤلف مفهوم التوحيد عند الاسماعيلية. وهذا التوحيد يمكن أن نلخصه في العبارة التالية: « هو العجز والحيرة » مع الاقرار بوجود الباري ونفي الصفات عنه كما أوضح ذلك القرآن: « ليس كمثله شيء » (الشورى، 11). أما الصفات الواردة في القرآن فتنسب إلى أول مخلوق خلقه الباري أو المبدع، وهو العقل الأول الذي نطق بعد الحيرة والعجز: « شهد الله – وهو العقل الأول – أنه لا إلاه إلا هو، والملائكة – وهي العقول الأخرى – وأولو العلم قائما بالقسط » (آل عمران، 18). انظر الكرماني، راحة العقل السور الثاني ص 37–56.

(47) الوصي هو الشخص الثاني بعد النبي أو الناطق في سلم مراتب الدعوة، ويسمى أيضا بالأساس لأنه أساس الدين وبيت الشريعة، وقد ذكر الاسماعيلية لتدعيم هذه التسمية قول المسيح لشمعون الصفاء: « انت الحجر الذي أبنى عليك كنيستي » (تأويل الزكاة ص 31)، ومن أسمائه الصامت لأنه لا يصرح بعلمه في حياة الرسول. وهو الوارث الروحي للرسول. وقسطه من الشريعة هو شرح التأويل وايضاح الحقيقة واظهار المعنى الباطن للدين وابعاد ما فيه من تصوير مادي، وإزالة التناقض والاختلاف بارجاعه إلى المعنى الأصلي. فهو حجة الرسول وبابه. انظر الكرماني، راحة العقل ص 65–66.

غدّه علي بن أبي طالب نافخ روح الحياة في جسم شريعته المُطَهّرة ببيان التأويل ، وموضّح ما استتر من المعاني الشريفة في مضمون التنزيل ، والهادي لمن ائتم به من الأمة إلى قصد السبيل ، وعلى زوجته الحوراء فاطمة الزهراء دوحة الأغصان الإمامية ، ومقرّ الزبدة الإسلامية ؛ وعلى ولديْها الإمامَيْن الفاضلين السبطين الطيبين الكاملين ، مستودع سرّ الإمامة ومستقرّها (48) ، الحائزيْن من شرف النبوة والوصاية قصب فخرها ، وعلى الأئمة من ذرية الحسين بن علي هداية الخلائق وبيوت أنوار العزيز الخالق ، والسالكين بشيعتهم أشرف المناهج وأوضح الطرائق ؛ وعلى من سبقت به البشائر قبل تشخصه والاعلام ، الزبدة الممخضة لها الليالي والأيام ، سيدنا ومولانا وإمام عصرنا الإمام الطيّب أبي القاسم أمير المؤمنين (49) ، خاتم دور الأشهاد (50) ومُفتتِح دور الأبدال (51) وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين الأمجاد، وسلّم تسليما .

(48) الامام المستودع هو الامام الحافظ للدعوة لمدة معينة حتى يكبر الامام المستقر . أما الإمام المستقر فهو الإمام الحقيقي صاحب الدعوة ، وهو الإمام بالنسب والروح . فالحسن بن علي بن أبي طالب إمام مستودع ، وانقطعت الإمامة في نسله . أما أخوه الحسين فهو إمام مستقر ، وبقيت الإمامة في عقبه .

(49) الامـام الطيب أبو القاسم هو ابن الآمر الخليفـة الفاطمي الذي قتـل على أيدي النزارية سنة 524هـ . وقد تولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ عبد المجيد الذي لا يمكن أن تؤول إليه الامامة حسب قانون الدعوة الذي ينص على أن الامامة تكون في ولد بعد والد ولا يمكن أن ترجع القهقرى ؛ ويذكر المقريزي (خطط م 2 ص 165) أن عبد المجيد بويع له بالإمامة «على أن يكون كفيلا لمنتظر في بطن أمه من أولاد الآمر» . أما هذا المولود فقد وردت في شأنه أقوال متعارضة إلى حد أن وجوده أصبح من قبيل الأسطورة والخيال . فبعض الروايات تذكر أنه ولد للآمر بنت ، يذكر عمارة اليمني (تاريخ اليمن ص 127–130) أنه ولد للآمر وفي حياته ولد سماه الطيب ، وبعث الآمر في ذلك بسجل إلى الملكة الصليحية أروى الداعية الفاطمية باليمن يبشرها بالمولود الجديد وبتعيينه لمنصب الامامة . ومهما تكن الحقيقة فإن هذا الولد حتى ان وجد فإنه لم يظهر على المسرح السياسي ولا على المسرح الديني ، بل لم يعرف عنه غير اسمه الذي أصبح لقبا للدعوة الفاطمية باليمن ، ومنذئذ دخلت الدعوة في اليمن في دور الستر أو كما يسمي ذلك نصنا دور الأبدال ، وقامت الداعية أروى بالدعوة إلى الإمام الطيب ، وعينت داعيا في رتبة الداعي المطلق يقوم بأمر الدعوة في الجزيرة ، ويعتبر إلى حد ما داعيا للإمام أو بدلا عنه من حيث نشر الدعوة ، ومنذ ذلك الحين عرفت الدعوة الفاطمية باليمن بالدعوة الطيبية نسبة إلى الإمام الطيب .

(50) دور الاشهاد أي دور الظهور ، وهو الدور الذي ظهرت فيه الدعوة الاسماعيلية منذ قيام الدولة الفاطمية .

(51) دور الابدال ، أي دور الستر ، وهو دور الدعاة الذين يقومون مقام الامام المستور . انظر تعليق 49 . والابدال إسم واقع على العلماء الذين هم الدعاة الذين يقومون بأمر الدعوة ، الذخيرة لعلي بن محمد بن الوليد ص 151 .

أما بعد ، فإن بعض الإخوان الفضلاء كثّرهم الله — تع — وأنماهم ، وحاطهم عن المكاره في دينهم ودنياهم وحماهم ، عثر على قصيدة منسوبة إلى الرئيس أبي علي ابن سينا — قدس الله روحه — أغمض معانيها ولوّح بأسرار حقيقة أسَّسَ عليها مبانيها لئلا يستخرج دفائنَها المكنونة ، ويغوص على دُرَرها الثمينة ، ويهتدي إلى ما ضمّنه فيها من المعاني الشريفة والعلوم الغامضة اللطيفة إلا من أنعم الله — تع — عليه بالاستملاء لها من أربابها ، وأسرى إليه لطفا من خزان بيوت الحكم لقصده من أبوابها ، ولئلاّ يَطّلع عليها مَن غلَبته شِقوته من أحزاب الشياطين والأبالسة المُدّعين لِما لا يستحقّونه من المراتب تسلّقا على التكالب في الحُطام الزائل والمنافسة ، وليكون ما احتوت عليه من الرسوم إيقاظا لذوي التمييز من سِنَة الغفلة ليبحثوا عن مُخَبَّآتها، وتذكارا لأرباب الهِمم العالية ليتطلّعوا إلى الأشرف من ألغازها ومكمناتها . وسألني إيضاح ما أودعه فيها من الأسرار اللطيفة والألغز ، وأشار إليه في مضمونها من الحقائق الشريفة ورَمَز (52)، فتعيّن عليّ فَرضُ

(52) التقية : مبدأ من مبادىء الشيعة العمليـة ، اتخذه الشيعـة مبـدأ لصيانة حركتهم وعقيدتهم ، وفي القرآن « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة » وفي قراءة « إلا أن تتقوا منهم تقية » . ومعنى هذه الآية أن المرء يحافظ على نفسه ويدرأ عنها الشر ، فيظهر خلاف ما يضمر ، أي أنه يتقي ويكتم حقيقة أمره .

استعمل هذا المبدأ الاثنا عشرية والاسماعيلية وحتى اخوان الصفاء خوفا من الخلفاء والولاة الذين يتبعون أثرهم ، لذلك كان الشيعة يختارون الرمز عندما ينص إمام على إمام آخر ، كما كان الشيعة عامة تخفي حقيقة أمرها وتمسك عن المعارضة والجدل إذا أحست بالخطر أو أن أمرها سيفتضح .

ولبيان قيمة هذا المبدأ روى الكليني أخبارا كثيرة منها أن أبا عبد الله قال : « تسعة أعشار الدين في التقية ، ولا دين لمن لا تقية له » ويؤولون الآية : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » أي بما صبروا على التقية .

ومن معاني التقية استعمال الشيعة في كتاباتهم للرمز والاشارة واللغز . يقول اخوان الصفاء ، رسائل ج 4 ص 166 : « اننا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سطوة الملوك ذوي السلطلة ولا حذرا من شغب جمهور العوام ولكن صيانة لمواهب الله — عز وجل — لنا » لذلك يطلبون من كل اخواني أن « يتحرز في حفظها واسرارها واعلانها واظهارها كل التحرز ويحرسها غاية الحراسة ويصنها أحسن الصيانة » رسائل ج 1 ص 44 ، ومن أجل ذلك جرت عادة اخوان الصفاء على أن يكسوا الحقائق ألفاظا وعبارات وإشارات . ج 2 ص 377 .

إجابته وإسعافُ أمله وتلبيةُ دعوته (53) رغبةً في ثواب الله في نشر الحكمة للطالبين من أهلها ، وإيصالها إلى الرّاغبين المستحقّين لها ، العارفين بفضلها ، لقول النبي – صلعم – : « لا تُعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » (54) وجَعلتُ ذلك في هذه الرسالة ، وسمّيتها بالمفيدة في إيضاح ملغز القصيدة . وبالله أستعين ، وعليه أتوكل ، ومن بركة مَن تشتملُ عليّ دائرته ويحيط بي فَلَكُه استمدادُ المعونة فيما أنحوه منه وعليه المعوّل . ولم أعد فيما أوردته طريق الإشارة القريبة من العبارة صيانةً للحكمة أن تقع في يد من لا يستحقها من الرّعاع الجُهّال ، ورعايةً لأسرار أولياء الله عن أن ينالها من لا يستوجبها من الأشرار ذوي العناد والضلال (55) . فما كان في ذلك من غير عمد ولا زلل ولا زلّة بغير قصد فمنسوب إلى تبلّد بصيرتي وقصور صورتي ، وما كان من صواب فمن بركات أولياء نعمتي وأسباب هدايتي وبالله – تعالى – وبركاتهم أعوذ من الخطأ والزلل وأستهدي التوفيق إلى صواب القول والعمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال الرئيس علي ابن سينا : (الكامل)

هَبَطَتْ إلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأرْفَعِ
وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزّزٍ وَتَمَنّعِ

(53) نلاحظ هنا العلاقة القوية التي تربط أفراد الأسرة الاسماعيلية بعضهم ببعض ، إذ يتعين على كل اسماعيلي أن يفيد أخاه الاسماعيلي ، وأن يأخذ بيده في جميع الميادين حتى يتحقق وجود مدينة فاضلة ، وهي لا تتحقق إلا بمد يد المساعدة والعمل على خلق المؤمنين . وكل اسماعيلي لابد أن يرمي إلى تحقيق قولة جعفر الصادق : « لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يخلق مؤمنا مثله » ، ولهذه القولة قيمة كبيرة في توطيد أركان المجتمع الشيعي .

(54) ورد هذا القول منسوبا إلى الرسول كما في نصنا هذا ، وإلى المسيح كما في رسائل اخوان الصفاء ج 4 ص 166 ، ونسب إلى الأنبياء والأولياء بدون تعيين كما جاء في جامع الاسرار لحيدر آملي ص 20 مع إضافة : « كونوا كالطبيب الشفيق يضع الدواء موضع الداء . ولم نجد اثرا لهذا الحديث مسندا إلى الرسول في المسانيد السنية.غير أنه جاء في سنن الدارمي مقدمة ص 35 : « ولا تحدث الحكمة للسفهاء » الذي يتفق في المعنى مع الحديث الشيعي .

(55) انظر تنبيه 52 .

مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ نَاظِرٍ (56)
وَهْيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرْقَعِ
وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا
كَرِهَتْ فِراقَكَ وهِيَ ذاتُ تَفَجُّعِ
أَنِفَتْ ومَا أَنِسَتْ (57) فَلَمَّا واصَلَتْ
أَلِفَتْ (58) مُجَاوَرَةَ الخَرابِ البَلْقَعِ
وأَظُنُّهَا نَسِيَتْ عُهُودًا بِالْحِمَى
ومَنَازِلاً بِفِراقِهَا لَمْ تَقْنَعِ
حَتَّى إِذا حَصَلَتْ (59) بِهاءِ هُبُوطِهَا
عَنْ مِيمِ مَرْكَزِهَا بِذاتِ الأَجْرَعِ
عَلِقَتْ بِهَا ثَاءُ الثَّقِيلِ فَأَصْبَحَتْ
بَيْنَ المَنَازِلِ (60) والطُّلُولِ الخُضَّعِ
تَبْكِي إِذَا ذَكَرَتْ عُهُودًا بِالحِمَى
بِمَدَامِعٍ تَهْمِي وَلَمَّا تَقْلَعِ
وَتَظَلُّ سَاجِعَةً عَلَى الدِّمَنِ الَّتِي
دَرَسَتْ بِتَكْرارِ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ
إِذْ عَاقَهَا الشَّكْلُ (61) الكَثِيفُ وَصَدَّهَا
قَفَصٌ عَنِ الأَوْجِ الفَسِيحِ الأَرْفَعِ (62)

---

(56) وردت كذلك : عارف .
(57) وردت كذلك : وما ألفت .
(58) وردت كذلك : انست .
(59) وردت كذلك : اتصلت .
(60) وردت كذلك : المعالم .
(61) وردت كذلك : الشرك . والتعبيران صحيحان . فإذا اعتبرنا النفس وحصولها في البدن فهو الشكل ، ويمكن أن يعد البدن شركا للنفس . أما إذا اعتبرنا الورقاء فيكون الشرك أولى وأدق .
(62) وردت كذلك : المربع . يبدو أن التعبير بالأرفع أصح وأدق حيث أن هذا القفص الذي هو البدن يصد النفس عن اللحوق بالأوجع : الفسيح المرتفع .

وَغَدَتْ مُفَارِقَةً لِكُلِّ مُخَلَّفٍ
عَنْهَا حَلِيفَ التُّرْبِ غَيْرَ مُشَيَّعِ

حَتَّى إِذَا قَرُبَ المَسِيرُ (63) إِلَى الحِمَى
وَدَنَا الرَّحِيلُ إِلَى الفَضَاءِ الأَوْسَعِ

سَجَعَتْ وَقَدْ كُشِفَ الغِطَاءُ فَأَبْصَرَتْ
مَا لَيْسَ يُدْرَكُ بِالْعُيُونِ الهُجَّعِ

وَغَدَتْ تُغَرِّدُ فَوْقَ ذِرْوَةِ شَاهِقٍ
وَالعِلْمُ يَرْفَعُ قَدْرَ مَنْ لَمْ يُرْفَعِ (64)

فَلأَيِّ أَمْرٍ (65) أُهْبِطَتْ مِنْ شَاهِقٍ (66)
سَامٍ (67) عَلَى قَعْرِ الحَضِيضِ الأَوْضَعِ

إِنْ كَانَ أَهْبَطَهَا الإِلَهُ لِحِكْمَةٍ
طُوِيَتْ عَنِ الفَطِنِ (68) اللَّبِيبِ الأَرْوَعِ

فَهُبُوطُهَا لاَ شَكَّ (69) ضَرْبَةُ لاَزِبٍ
لِتَعُودَ (70) سَامِعَةً (71) لِمَا لَمْ تَسْمَعِ

وَتَكُونُ (72) عَالِمَةً بِكُلِّ خَفِيَّةٍ (73)
فِي العَالَمِينَ وَخَرْقُهَا (74) لَمْ يُرْقَعِ

---

(63) وردت كذلك : من الحمى .
(64) وردت كذلك : كل .
(65) وردت كذلك : شيء .
(66) وردت كذلك : شامخ .
(67) وردت كذلك : عال إلى .
(68) وردت كذلك : عن الفذ .
(69) وردت كذلك : ان كان .
(70) وردت كذلك : لتكون .
(71) وردت كذلك : بما .
(72) وردت كذلك : وتعود . واصلحها الناسخ بتعود عند شرح هذا البيت .
(73) وردت كذلك : حقيقة .
(74) وردت كذلك : فخرقها .

وَهيَ الَّتي قَطَعَ الزَّمَانُ طَرِيقَهَا
حتّى لَقَدْ غَرُبَتْ (75) بِعَيْنِ المَطْلَعِ
فَكَأنَّهُ (76) بَرقٌ تَألَّقَ بالحِمَى
ثُمَّ انطَوَى فَكَأنَّهُ لَمْ يَلْمَعِ

نقول – بعون الله –تع– وهدايته ومادّة وليّه في أرضه صلوات الله عليه وإفادته – أما قولـه :

1 – هَبَطَتْ إلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأرْفَعِ
وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ (77)

فإنه عنى بذلك ما جرى من فتور (78) من فتر عن قبول الإجابة في عالَم الإبداع (79) ، وتخلّفه وتهيّئه للنكوص بعد الاعذار إليه وتكشّفه ، وما

---

(75) وردت كذلك : بغير .

(76) وردت كذلك : فكأنها .

(77) هبطت أي نزلت وإنما لم يقل نزلت لأنه اقتبس من القرآن بما اشتق من الهبوط كقوله – تعالى – « قلنا اهبطوا » والخطاب للنفس الناطقة . قوله : إليك مخاطب مع الشاهد المحسوس المتصف بالحياة والحس والحركة . ومراده بالمحل الارفع العالم الروحاني والمنزل القدسي . ورقاء فاعل هبطت ، والورقاء حمامة لونها لون الرماد والحمامة أقوى وأسرع في الطيران والتصاعد من غيرها . وهذا اللون لا يرى في الهواء ، ولهذا أشبه النفس الناطقة بها . ذات تعزز وتمنع أي ذات عزة وقوة . فظاهر مغزى البيت يدل على أن النفس الناطقة أعم من أن يكون جسما نزلت من الجانب الأعلى إلى الأبدان كما هو مذهب المسلمين ، لكنها لما كانت مجردة عند الشيخ وجب أن يأول الهبوط على وفق مذهبه فيقول يريد بهبوط النفس تعلقها بالبدن تعلق التدبير والتصرف . (كارا دو فو Carra de Vaux ، المجلة الآسيوية 1899 ص 159)

(78) جاء في كتاب الفترات والقرانات لجعفر بن منصور ص 57ب : « ان الفترة مشتقة من الفتور والفتور من العياء والملالة كما يقال لمن سهر بالليل يكل بصره عن النظر ، وكادت تنطبق أجفانه لأن بعينه فتورا وتغيرا . ويقال أيضا للماء الساخن الذي قد نقصت حرارته وبقي فيه شيء من الحرارة فانه فاتر يعني مختلف عما كان عليه من السخونة لما اخذ الزمان من حرارته ، فيجب من هذا البحث أن تكون الفترة التي تقع بين الأدوار ، وإنما هي إعياء وملالة تلحق الأنفس الجزئيات في العالم الجسماني لعجزها عن قبول التأييد بالتخصيص مدة من المدد ، ثم تزول تلك الملالة فتظهر نفس زكية يتصل بالتأييد مخصوصا فهذا معنى الفترة » . وقد حصل هذا الفتور في العالم العلوى فكان سببا في انفجار العوالم ووجود العالم الارضي . انظر كذلك السجستاني إثبات النبوات ص 192 .

(79) عالم الابداع هو عالم العقول المفارقة ، ويشمل العقول العشرة التي تبتدىء بالعقل الأول الذي يسمى في اصطلاح الاسماعيلين بالمبدع الاول ، وتنتهي بالعقل العاشر مدبر عالم الكون والفساد . انظر الكرماني ، راحة العقل ص 138 .

كان من مُخاطبة الحق — سبحانه — له عند تقهقره ناكصا على العقب بقوله تعالى : «انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» (80) وهي الثلاثة الأبعاد المقوّمة لذوات الأجسام المنحطّة إلى دركات النقص عن درجات الكمال والتمام بقوله : «اهبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (81) فأهبطوا من عالم اللطافة إلى محلّ الكثافة ، ومن فضاء الأنوار العالية إلى محلّ الأجسام البالية ، وأسر الطبيعة ، وبَحر الهيولى المتلاطم الأمواج ، وظُلمة عالمِ الكون والفساد ودار المزاج (82) .

وقوله : وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ

إشارة إلى ما كان من التكبّر عن الخضوع لمَن سبق عليهم بإجابته ، وتمنّعهم عن طاعة مَن أمروا بطاعته ، وانقسامهم في ذلك إلى نادم مستغفر بعد تعذّر الامكان ، وشاكّ متحيّر هو بالحقيقة هؤلاء الثلاثة الأركان ،

(80) المرسلات ، 30 .

(81) الاعراف ، 24 . البقرة ، 36 .

(82) لقد كانت مسألة تخلف بعض الاشخاص الروحانية في العالم العلوى ونكوصهم من أهم المسائل التي تعرض إليها الاسماعيلية بالبحث والدرس ، والتي كانت سببا في تفجير العوالم الكثيفة ، وتظهر أهميتها إذا عرفنا أن الفلسفة الاسماعيلية ترتكز أساسا على مبدأ قانون الموازنة . فحسب هذا القانون ، فان قصة آدم وابليس الواردة في الكتب المقدسة ، دفعت الاسماعيلية إلى الحديث عن صراع ونزاع وقع في العالم العلوى حين استجاب البعض لنداء الرب فسارع بالطاعة والعبادة بواسطة العقول التي سبقت غيرها بالاستجابة بينما رفض البعض الآخر الاعتراف يالوسائط فتحيروا ونكصوا وأصابهم الفتور وقيل لهم «اهبطوا بعضكم لبعض عدو» ، فأظلمت ذواتهم وتكثفت ، وذلك تحقيق لقوله تع : «انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب» وهو الجسم المادي المكون من الطول والعرض والعمق . وهكذا فإن قصة آدم وما جاء فيها من تفاصيل كانت قد وقعت في العالم العلوى عند بدء التكوين ، بل نستطيع أن نقول إن قصة آدم الجزئي المذكورة في كتب الوحي هي حكاية وإعادة لما وقع في العالم العلوي ، لذلك يتحدث الاسماعيلية عن آدم روحاني وهو عقل من عقول عالم الابداع الذي أصابه الفتور وتأخر عن رتبته ثم تاب وأناب ، وعن آدم كلي وهو أول آدم ظهر في الشكل الانساني وأول إنسان في الوجود ، وعن آدم جزئي وهو آدم دورنا وهو المشار إليه في الكتب المقدسة . انظر تفصيل ذلك في كتابنا : الآراء الدينية والفلسفية للاسماعيلية الفاطمية ص 130—138 . وكذلك رسالة المبدأ والمعاد للحسين ابن علي تحقيق وترجمة هنرى كوربان H. Corbin طهران 1961 ضمن ثلاث رسائل اسماعيلية Trilogie ismaélienne ص 102 وما بعدها .

ومُصرّ مستكبر هو قسم الأرض (83) التي عليها نقطة المركز والمكان ، وما كان من المدبر – تعالى – من أقدره من وضع كل قسم من هذه الثلاثة الأقسام في موضعه اللائق به بمقتضى العدل (84) لما اطلع عليه من سابق نيّاتهم ، وترتيب كلّ شيء من ذلك في مكانه الذي يستحقه لما علم من باطن طويّاتهم : أفلاكا وكواكب هي الآباء ، وأركانا هي الأمهات (85) ، لتكون النتيجة المواليد التي أولها المعادن وآخرها الانسان الحقيقي (86) الذي هو القصد وعليه المؤول ، وأول الفكر وآخر العمل ، الولد التام الحائز لما فات من رتبة الكمال والتمام ، الخالف لموجده في موضعه ومكانه ، والمدبّر لما كان مصروفا إليه من أفلاك العالم وأركانه .

---

(83) ان التكبر والنكوص والتحير الذي أصاب فريقا من أشخاص العالم العلوي لم يكن في مستوى واحد ، بل كان يختلف من جماعة إلى أخرى . هناك من الكائنات من ندم على فعله فطلب المغفرة ، وهناك من شك فتحير ، وهناك من أصر واستكبر . فمن النادم المستغفر تكونت الافلاك والكواكب ولذلك كانت أكثر لطافة من غيرها ، ومن الشاك المتحير تكونت الاركان أو الأمهات وهي الماء والتراب والهواء والنار ، ومن المصر المستكبر تكونت الأرض . أنظر تفصيل ذلك في كتابنا الآراء الدينية والفلسفية ص133–138 ؛ وكذلك رسالة المبدأ والمعاد ص 106–107 ضمن ثلاث رسائل إسماعيلية Trilogie ismaélienne تحقيق هنـري كوربان H. Corbin طهران 1961 . أنظر ما جاء عن أحمد بن خابط أحد رجال المعتزلة في هذه المسألة ، الشهرستاني الملل والنحل ج 1 ص 62 .

(84) العدل الالهي : من المشاكل التي أثارها الاسماعيلية هي مشكلة العدل الالهي في خصوص وجود كائنات متفاوتة في الفضل والدرجة . يرى الاسماعيلية أن هذا التفاوت يتبع النية وما وقع اضماره عند عرض الله للميثاق . فالاسماعيلية يتحدثون عن وجود عقول متفاوتة في الدرجة والفضل ، وتخضع كائنات العالم الارضي إلى هذا التفاوت . وهذا التفاوت كما ذكرنا مرهون بالنوايا التي اضمرتها الكائنات الروحانية في مبدا التكوين قبل أن تتفجر العوالم .

(85) يؤكد مفكرو الاسماعيلية على مبدا الثنائية في الخلق : فلا بد من ذكر وأنثى حتى يقع التوالد والتناسل ، ومن هذه الجهة عبروا عن الكواكب والافلاك بالآباء ، عنصر الذكورة ، وهو الذي يبعث بالمادة وعن الأرض أو الأركان التي هي الماء والهواء والنار والتراب بالأمهات ، عنصر الانوثة ، وهو الذي يتقبل المادة ، ولا بد من وجود هذين العنصرين حتى يقع الخلق والتوالد . وطبقوا هذا القانون على الجانب الروحي والجانب الاجتماعي . فالدعوة لا يمكن لها أن تثمر إلا إذا وجد الامام الذي هو بمثابة الاب والحجة الذي هو بمثابة الام .

(86) الانسان الحقيقي : يرى الاسماعيلية أن العالم كله خلق من أجل الانسان والانسان الحقيقي ، فهو الغاية وهو القصد ، وهو كما يقولون : أول فكرة الباري قبل خلق العوالم وآخر كائن خرج إلى الوجود . فالانسان هو زبدة العالم ، وهو الولد التام الكامل الذي جمع فيه كل صفات العالم فقيل فيه العالم الصغير . ويقول حميد الدين الكرماني ، راحة العقل ص 145 – 162 : « ان الانسان الحقيقي هو عقل قائم بالفعل ، وهو مثل أصحاب الأدوار أي الرسل وخاصة السابع القائم الذي يعتبر خلاصة الرسل كلهم » .

فجعل المدبّر ، جلت قدرته ، أجزاء العالم الكبير مرتبة بعضها في أفق بعض ليقع بتقابل المناسبة والمشاكلة والمشابهة والمماثلة اتصال الضد بضده المنافر له ، ويحصل باتصال البعض بالبعض الغرض الذي قصد إليه متولي أمره وعدله . فكان الطرف الاعلى منه الذي هو الفلك المحيط أصفى الهابط وأشرفه ، وأقربه مناسبة لما فوقه وألطفه ، وكادت هيولاه تتحد بصورته للطافته وكونه على الغاية للتهيىء لما يكون منه لبساطته وشفافته . وكانت الأرض التي هي الطرف الادنى من العالم أكثف أجزائه وأشدها ظلمة ، وأبعدها عن ذلك العالم الشريف وأقلها قبولا لما يراد خروجه بموجب العدل والحكمة حتى كادت صورتها تشبه هيولاها لبعد نسبتها ومشاكلتها لعالم الأنوار ، وانحطاط رتبتها وما كان بين هذين الطرفين من الأفلاك الدائرات والأكر المتحركات ، كلّما كان أقرب من الطرف الأعلى كان ألطف وأشرف ، وصورته على هيولاه أغلب . وما دنا إلى الطرف الأسفل كان أنقص وأكثف ، وصورته أشبه بهيولاه وإليه أقرب . ذلك تقدير العزيز العليم ، وما ربك بظلام للعبيد .

وقد ذكر ذلك الشخص الفاضل صاحب الرسائل (87) — صلوات الله عليه — في كثير من رسائله الشريفة منه ما لوح به ومنه ما صرح . فمن ذلك قوله في الرسالة الجامعة (88) عند ذكره العالم إنسان كبير وهو : « إذا قالت الحكماء النفوس الجزئية . فإنما عنوا بها القوى المنبثة (89) من النفس الكلية

(87) يرى مفكرو الاسماعيلية المتأخرون من اسماعيلية اليمن أن الذي ألف الرسائل شخص واحد لا أشخاص متعددون . وجاء في الرسالة الوحيدة في تثبيت أركان العقيدة ص 45 للحسين ابن الوليد ، أن مؤلفها هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل ، وهو ثاني أئمة دور الستر الواقع بين محمد بن اسماعيل والمهدي مؤسس الدولة الفاطمية . ونشير هنا إلى أن الآراء في هذا الموضوع متعددة سواء عند القدماء أو عند المحدثين . انظر كتابنا الآراء الدينية والفلسفية ص27—22 . وانظر كذلك حسين الهمداني Ikhwân as-Safâ' in the literature of the ismaili tayibi da'wat. Der Islam, XX, 1932

وكذلك مقدمة الرسائل بقلم طه حسين وأحمد زكي .

(88) هذا النص مأخوذ من رسالة الجامعة ج 2 ص 38—39 : ويوجد كذلك في رسالة جامعة الجامعة ص 80 .

(89) رسالة : المنبعثة .

الهابطة إلى المركز ، المشتاقة إلى عالم الطبيعة المتخلفة عن قبول الافاضة العقلية (90) ، التي لحقها الفتور عن التسبيح والتقديس في محل الأنوار ، فأهبطت إلى قرار المركز (91) وتكليف العبادة وصعوبة الطاعة بالآلة الجسدانية والأشخاص الطبيعية . وكانت بنوع ليست هي به الآن (92) . وإليه ترجع إذا تابت من خطيئتها واستقالت من عثراتها (93) . ولذلك تعطّف الكل (94) عليها ، وتأنس إليها ، وأرسل الرسل المنذرين (95) ، وأمدّهم (96) بالملائكة المقربين . فإن تابت وأنابت عادت إلى روح وريحان ، وربّ غير غضبان ؛ وإن عصت وأبت ، وأصرت واستكبرت ، وعن المنذرين تخلّفت ، وإن ذكرت لا تتذكر (97) ، وإن بصرت لا تتبصر (98) ، تحيرت وتقطعت (99) كتقطع (100) السيل المنحط من ذروة الجبل في تخوم الأرض ، وصارت في ظلمات أسفل السافلين ، وهي تارة تنزل بالفساد وتارة تطلع بالكون إلى محل الأجساد ، وتارة يتصرف بها الزمان وتغاير الأيام ، وتنبث في الآفاق ، وتتقطع (101) أمما .

---

(90) الافاضة العقلية . يعبر الاسماعيلية عن الافاضة العقلية بعدة اصطلاحات منها المادة الالهية وعمود النور والمغناطيس الالهي والساري ، وكلها تفيد معنى واحدا وهي العلوم الالهية التي اتحدت بالعقل الأول . وهذه المادة (أو المعارف الالهية) هي التي تفيد الكمال الثاني وهو الكمال الصوري حيث ان الكمال الأول هو الوجود الهيولاني وهو الوجود بالذات . انظر قاضي النعمان ، أساس التأويل ص 141 .

(91) رسالة : ووقع بها تكليف .

(92) رسالة : هكذا في حاشية الرسالة وفي الأصل : وكانت لسبب هي له الآن .

(93) مسألة الخطيئة والزلة ، انظر تنبيه 82 .

(94) رسالة : الكلية . في الحاشية ولذلك يعطف الكل عليها ويأنس إليها .

(95) رسالة : والمنذرين .

(96) هكذا في الحاشية وفي الأصل أيدهم .

(97) رسالة : لا تذكر .

(98) رسالة : لا تبصر .

(99) رسالة : وانقطعت .

(100) هكذا في الحاشية وفي الأصل : كما ينقطع المنحط .

(101) رسالة : تنقطع .

ثم ما جاء عنه ـ عليه السلام ـ في جامعة الجامعة (102) عند ذكر آدم الكلي وزوجته (103) وابليس الكلي (104) والشجرة المنهي عنها ، وهو قوله : « وما كان من الأمر في ذلك في البداية والمعصية الحادثة في عالم النفس ، وكيف كان انسياق الأمر وسريان القوة النفسانية في أول الأشخاص الإنسانية ، وهي الصور الآدمية ، وهو آدم الجزئي العاصي ، الواقع به النهي عن أكل الشجرة

---

(102) جامعة الجامعة ، رسالة نشرها عارف تامر ونسبها إلى إخوان الصفاء ويبدو عند المقارنة أن هذه الرسالة تلخيص لرسالة الجامعة التي نشرها جميل صليبا (دمشق 1948) . ولقد شك بعض الباحثين في أن تكون جامعة الجامعة مؤلفا قام به إخوان الصفا على انفراد وتحت هذا الاسم وإنما هذا الكتاب عبارة عن فصول منتزعة من رسالة الجامعة مع شيء من الاختلاف . وإضافة إلى ما يوجد من التشابه التام بين الرسالتين فإنه لا توجد أية إشارة إليها لا في رسالة الجامعة ولا في غيرها . ولكن ذكر هذه الرسالة في نصنا هذا يثبت صحة وجود رسالة بهذا الاسم غير أنه لا نستطيع أن نقطع بأن ما نشره عارف تامر هو كل الرسالة أو هو الرسالة نفسها خصوصا وأن النص الذي ذكره مؤلفنا على أنه من رسالة جامعة الجامعة لا نجد له أثرا في طبعة عارف تامر . انظر المقدمة ص 13 .

(103) آدم الكلي هو أول شخص بشري وجد على الأرض ويسمى آدم الأول ، وهو صاحب الجثة الابداعية أي الجثة التي تنسب إلى الابداع وهو الخلق من لا شيء ، وهو الذي ظهر في سيلان مع سبعة وعشرين شخصا آخرين أصحاب الدعوة الخالدة . وهنا يجب أن نفرق بينه وبين آدم الروحاني وبينه وبين آدم الجزئي . فآدم الروحاني هو الملك الذي استكبر وتحير فاظلمت ذاته وتأخرت مرتبته ، فاصبح عاشرا بعد أن كان ثالثا في الرتبة ، ثم تاب وأناب وهو العقل العاشر مدبر عالم الكون والفساد . أما آدم الجزئي فهو صاحب دور الستر وآدم دورنا .
انظر أربعة كتب إسماعيلية نشر ستروتمان ص 129 ، ورسالة المبدأ والمعاد لسيدنا الحسين ابن علي ص 111 وما بعدها و103 وما بعدها . وكتابنا الآراء الدينية ص 134 وما بعده.
أما زوجة آدم الكلي فهي حجته ، فحواء هي حجة آدم الجزئي ، وكل آدم وكل ناطق وكل إمام لابد له من زوجة أي حجة لأنه لا تنشأ المواليد الا من اجتماع ذكر وأنثى كما هو المعروف في الولادة الطبيعية .

(104) ابليس الكلي : لقد ذكرنا في تعليق 85 مبدا الثنائية في الخلق ، ونؤكد هنا على أن هذا المبدا ضروري في استمرار الكون لأن حركة الكون ، كما يراها الاسماعيلية ، ترتكز أساسا على مبدا التضاد ، فإن الخير في العالم المادي ليس له معنى إلا بوجود الشر ؛ فلو انعدم الشر انعدم بدوره كل معنى للعالم المادي ، لأن العالم المادي كان قد صدر إلى الوجود على أثر ظهور التضاد وهو ما يعبر عنه الوحي بفكرة إبليس الذي معناه الضد ، وفيه يقول اخوان الصفا : « ان ابليس هو اسم مشتق من الحيرة والضلال ، ومن ذلك يقال : أبلس الرجل إذا انقطع وتحير ووقف عن الأمر الذي هو أصلح له لو فعله ؛ كذلك ابليس لما أمر بالسجود لآدم أبلس بمعنى تحير ووقف ، ووقوفه عن السجود لآدم استصغارا له واستكبارا عليه لما ظنه في نفسه من الجلالة وأنه بقياسه قد بلغ إلى حد الكمال ، فأبى واستكبر واخلد إلى المعصية والخروج عن الطاعة ... » رسالة الجامعة ج 1 ص 124 ، لذلك وجدنا الاسماعيلية يتحدثون عن آدم الروحاني وعن ابليس روحاني ، وآدم كلي الذي هو أبو البشرية حقيقة ، وقالوا بأن ضده ابليس كلي ، وآدم جزئي وابليس جزئي وهما اللذان تحدث عنهما القرآن ، وأن ابليس كان السبب في خروج آدم وزوجته من الجنة . ومن هنا أصبحت كلمة ابليس تطلق على الضد . فلكل نبي ضد هو ابليسه ، ولكل إمام ضد .

النباتية ، وبيان ذلك في بدايته في حال البسائط الأولى حين ظهوره في العـالم الصغير ، إذ كان ما بدا بالبسائط بالقوة بدا في عالم التركيب بالفعل ، إلى قوله — صلوات الله عليه في هذا الفصل — إذ كانت البداية لا اختلاف في جوهريتها من جهة الخلقة الابداعية ، وإنما وقع الاختلاف والتباين في الاضمارات البادية في الأوهام المتخيلات » . هذا قوله — صلعم — ٠

ولو أردنا التوسع في الاستشهاد على ذلك من الرسائل الشريفة وسواها من كلام موالينا — صلوات الله عليهم (105) — من تأليفات حدودهم — أعلى الله قدسهم — لخرج من حدّ ما بنينا عليه هذه الرسالة . وفي القليل من ذلك ما يُغني طالب الكثير منه .

وقد لوّح مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — صلوات الله عليه — بشيء من ذلك في مواضع من كلامه في نهج البلاغة وغيره ، فمن ذلك قوله : «ولينظر أحدكم أسائر هو أم راجع ، فإنه من الآخرة قدم وإليها يرجع» . ويكفي في ذلك ما استشهدنا به من قوله سبحانه : « انطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» (106) وقوله عز وجل : « اهبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلَى حِينٍ » (107) . ثم قال عز وجل : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةِ ارْجِعِي إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً » (108) . والمفهوم من الكلام أنه لا يقال للواحد ارجع إلى موضع كذا إلا إذا كان قد تقدّم كونُه فيه . وفي بعض هذا غُنْيَة لِمَن وفّقه الله لمعرفته ، وأرشده إلى تَصَوّر حقيقته . جعلنا الله من الموفّقين لقبول الحقّ ، الراشدين به ، ولا جعلنا من المغضوب عليهم ولا الضالّين بفضله وكرمه .

---

(105) في الأصل : عليه .

(106) المرسلات ، 30 .

(107) البقرة ، 36 ؛ الاعراف ، 24 .

(108) الفجر ، 27 .

وأما قوله :

2 – مَحْجُوبَـةٌ عَنْ كُـلِّ مُقْلَـةِ نَاظِرٍ
وَهِـيَ الَّتِـي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَـرْقَـعِ (109)

فإنه عنى بذلك الحياة الهابطة التي تقدّم ذكرُها لما غشيتها أمواجُ الحيرة ، والتبست بالأجسام ، وأحاطت بها سُرادقات الشكوك ، وهوت في حنادِس الظلام ، وهي المُكَنّى عنها بالطبيعة (110) تارة ، وبالحياة السارية (110) تارة ، وبالخميرة الإبداعية (110) تارة ، التي قال الله – تعالى – فيها وهو « الذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » (111) . فلا يخلو جزء من أجزاء العالم الكبير ومواليده ، ولا يتعطّل شيء من الموجودات الجسمانية منها . وكيف يخلو منها وهو الجوهر الحامل لأغراضه المنتهية به إلى أفضل أحواله وأكمل أغراضه . وهي كما قال سيدنا حميد الدين – أعلى الله قدسه – فيها في المشرع الأول من السور الخامس من كتاب راحة العقل عند ذكره الجزءين اللذين هما الهيولى والصورة (112) . وبيانه أن الطبيعة في الجزء الأشرف منهما المكنى عنها بالصورة نقول فيها « إنّها حياة بالفعل منبعثة من عالم القدس ، غير مُستقلّة في وجودها بذاتها ، ولا مجرّدة عن غيرها ممّا يرتهن وجودها به (113) ، (يعني الهيولى الحامل لها) .

---

(109) محجوبة صفة للورقاء ، وبعضهم قال محجوبة بنصب على الحال ، يعني أن النفس الناطقة محجوبة عن النظر لكنها معلومة أو كل أحد يعلم تحقق نفسه بالضرورة . سفرت من السفر وهو كشف الوجه ، والتبرقع ستر الوجه .

(110) يقول حميد الدين الكرماني في تعريف الطبيعة : « انها مبدأ حركة وسكون في الشيء الذي هو فيه بالذات ، وذات هذا المحرك هي الحياة السارية عن عالم الربوبية المعرب عنها بالصورة التي وجودها بالانبعاث من عالم الابداع مع الهيولى » . راحة العقل ص 171–172 . ويقول أيضاً بأن الطبيعة هي الحياة المسماة بالنفس ، راحة العقل ص 165 . وجاء في كتاب الأنوار اللطيفة ص 41 لمحمد بن طاهر الحارثي (توفي سنة 584هـ) : ان الحياة الهيولانية الموجودة في جملة الطبائع الأربع هي المسماة بالطبيعة وبالخميرة الابداعية وبالنفس النامية وبالصورة » . وكل هذه المصطلحات تفيد أن الطبيعة هي الحياة والنفس السارية من عالم النفس وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي والكمال الأول هو الوجود من حيث الذات ، أي الوجود الطبيعي لكل جسم .

(111) النمل ، 25 .

(112) الكرماني ، راحة العقل ص 149–150 .

(113) ويضيف الكرماني : لوجودها من نسبة غير مجردة .

ثم قال : شائعة في عالم الجسم ، قد امتلأت السموات والأرض منها ، فلا يخلو منها شيء ولا يعزب (114) عنها شيء ، هي فاعلة فيه تعطي كل شيء كماله الأول الذي يتعلق بكونه موجودا . فإذا نسبت إلى الموجودات التي بها وجودُها على العموم سُلُوكا من طريق الإحاطة بفعله فهو محرّكٌ لكلّ شيء هو فيه كمال الوجود ، وعلى الخصوص الذي يكون بحسب أفعاله في كل قسم قسم . فهو إذا حرّك الأجسام العالية دورا ملك (115) ، وإذا حرّك النار والهواء علوا خفة ، وإذا حرّك الماء والشيء الثقيل سفلا ثقل (116) ، وإذا حرّك النبات للنماء نفس نامية ، وإذا حرّك الحيوان لطلب الملاذ نفس حسية (117) ، وإذا حرّك الانسان للإحاطة بالموجودات نفس ناطقة ، والكل بكونه فاعلا طبيعة واحدة ، وبأفعاله بالمواد المختلفة التي فيها يفعل كثيرة إلى آخر ما ذكره — أعلى الله قدسه —

ثم إنا نقول : إنه بخروج هذه الحياة الكامنة من القوة إلى الفعل إذا أديرت الأفلاك ، ورُتّبت الأملاك ، ومخضت الأمهات ، وبرز المعدن والنبات ، وظهر الحيوان المكبوب ، وانتهت الغايةُ إلى وجود الشخص البشَري الذي هو الغرض المطلوب ، وذلك أول ما ظهر من المواليد المعدن ، فكانت هذه الحياة فيه كامنة غيرَ ظاهرة بأفعالها بالكلّية إلا بما يشاهد من الخواص التي فيه كحجر المغناطيس والحديد وحجر الماس والذهب والحجر المسماة بغاضة الخل ، والمنافرة بين الأسرب والماس حتى لا يكسره غيره مع ضعفه ورخائه وقوة الماس وشدته ، وغير ذلك مما يعرفه أرباب الخبرة بخواص الأحجار . فلا تزال هذه الحياة تترتّب علوا في أنواع المعادن حتى تنتهي إلى أعلاها كالمرجان الذي هو من جهة جسمه معدن ومن جهة تكونه في البحر

(114) في نص راحة العقل : ولا يغرب .
(115) في نص راحة العقل : فلك .
(116) في الأصل : ثقيل .
(117) في نص راحة العقل حية وهو تحريف ، ونصنا أصوب .

نبات . وإذا ظهرت هذه الحياة بجسم النبات صارت فيه أبين فعلا وأقوى أثرا ، واكتسبت قوى النفس النامية السبع : وهي القوة الجاذبة والقوة الماسكة والقوة الهاضمة والقوة الدافعة والقوة الغاذية والقوة المنمّية والقوة المصوّرة . فهي بالجاذبة تجذب لطافة المعدن ، وتمسكه بالماسكة ، ثم تهضمه حتى يوافق جسمها ويصلح الامتزاج بالقوة الهاضمة ، وتدفعه إلى مواضعه اللائقة بالقوة الدافعة ، وتغتذي به القوة الغاذية ، وتُنمي أغصانها وفروعها بالقوة المنمية ، وتصور ما تحتاج إليه من الأوراق والبذور والحبوب وغير ذلك بالقوة المصورة . وصار لهذه الحياة في هذه الرتبة شعور لطلب الغذاء من المواضع التي فيها الرطوبة والتعرج عن المواضع الصلبة ، فلا تزال تتدرج في أنواع النبات حتى تنتهي إلى غاية مثل شجر النخل الذي صار من حيث الصورة نباتا ومن حيث الخواص والأفعال شبه الحيوان ، وذلك أنه لا يُثمر إلا بتلقيح إناثه بذُكرانه ، وإذا قطعت رؤوسه جفّ وتلِف ، وصورة نباته على ساق مشابه للقامة الالفية (118) .

ثم إنها إذا علت هذه الحياة عن هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان المكبوب صعدت في مراتب أنواعه درجة درجة ، واكتسب الحواس الخمس التي هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وصار لها حس الألم وحيلة الدفع إما بالهرب وإما بالمدافعة عن ذاتها وقوة الانتقال من مكان إلى مكان بالاختيار والإرادة . فلا تزال تترقى في أنواعه حتى تبلغ إلى أشرفه وأعلاه كالفرس الذي هو من حيث الخلقة الجسمانية من جملة الحيوان ، ومن حيث الأخلاق

---

(118) يقول محمد بن طاهر الحارثي في مجموع التربية (ص 81ب) : إن المقامات الالفية هي الأجسام البشرية التي هي الصراط المستقيم الممدود بين الجنة والنار . ولا تعدو أن تكون هذه المقامات الالفية هياكل إنسانية أي أجساما لحمية دموية ونفوسا نامية حسية سائرة إلى أول درج من درج النطق . وذكرنا سابقا أن الإنسان من حيث جسمه واحتواؤه على الحياة هو الكمال الأول أي إنه أحرز على الكمال الذاتي بالوجود ولكنه وجود بالقوة ، إذ الوجود بالفعل هو الكمال الثاني وهو حصول الإنسان على المعرفة والتأييد وهو التصور بالعلوم الإلاهية وهو ما يعبر عنه الاسماعيلية بالولادة الثانية أو الولادة الروحية، وهو الغرض من الإنسان . انظر الكرماني ، راحة العقل ص 74 ، 110 ، وأربعة كتب إسماعيلية ص 149 ، ومنتخبات إسماعيلية تحقيق عادل العوا ، ص 173 .

مشاكل للإنسان . وإذا ظهرت الحياة بالقامة الإلفية اكتسبت أموراً أخرى أشرف مما تقدم من المراتب التي جازتها ، وأجل قدراً من القوى الأولى التي ملكتها وحازتها : وهي قوة التخيل والحفظ والفكر والذكر والفطنة والصنعة والتميز والرويّة ، فلا يزال ينتهي بها الحال في مراتب نوع الإنسانية حتى تصل إلى غايتها ، وتركب طبقاً عن طَبَق حتى تبلغ إلى نهايتها ، وهي مراتب ذوي التأييد المتصلين بالملائكة المقرّبين بنفوسهم اللطيفة لا بأجسامهم الكثيفة ، وذلك غاية ما يتّصل إليه . وتتقدم إن قارنها التوفيق .

ووقف العامل عن عمله ، واتصل الآخر بالأول .

فمعنى ما ذكره في البيت من احتجابها هو ما ذكرناه من تدرّجها في هذه المراتب من أدناها إلى أعلاها وصعودها في درج معراجها حتى بلغت منتهاها (119) ، وصعب معرفة ذلك وغمض الأمر فيه إلا مَن ألهمه الله –تع– أخذه من أربابه ، هداة الأمة وأبواب الرحمة .

وأما قوله : وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرْقَعِ

فهو ما بيّنا من ظهور أفعالها التي تعجز عنها الأجسام عند التحقيق والبيان ، ولا يقدر على إصدار شيء منها إلا بها مما هو مشاهد للعيان مستغن عن إقامة دليل وبرهان . فاعلم ذلك إن شاء الله –تع– .

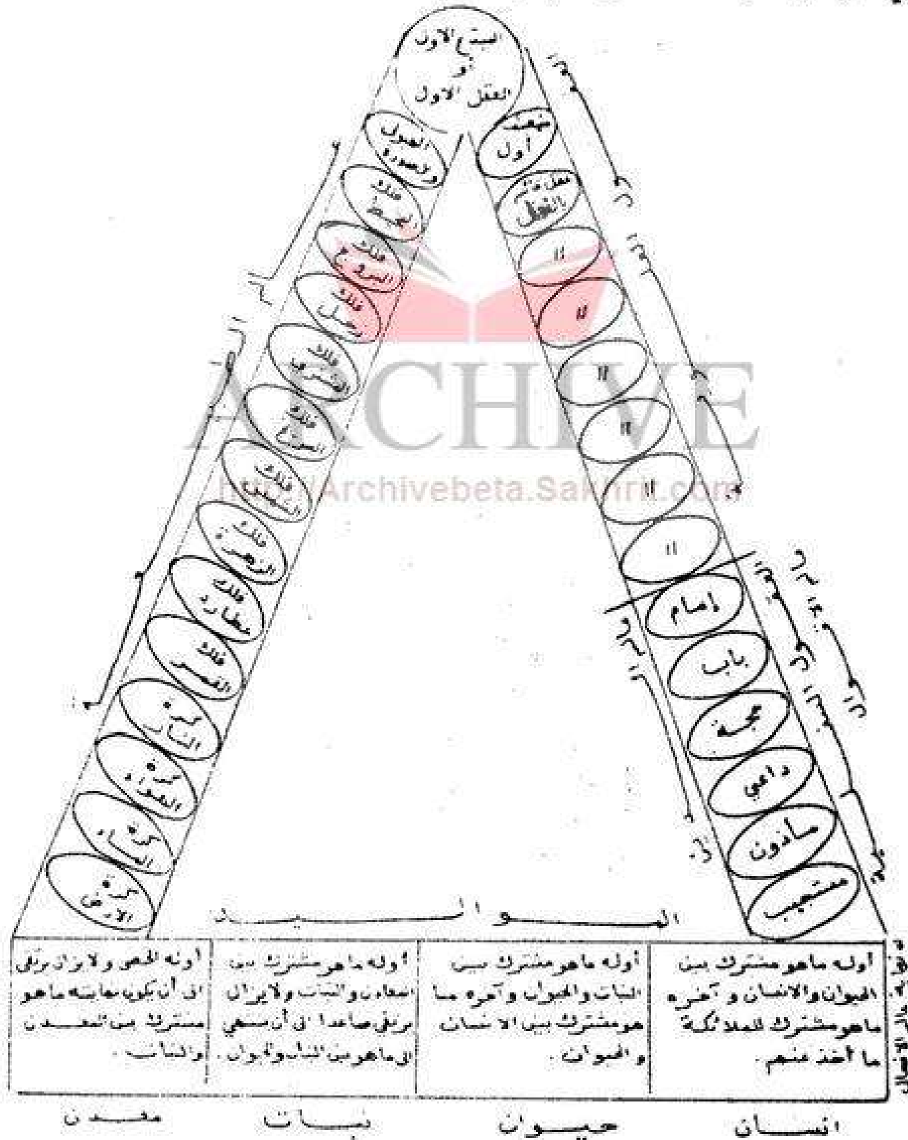
(119) يرى مفكرو الاسماعيلية أن عملية الخلق تواصلت بطريقة منطقية منسقة إلى أن وجد الإنسان . وهاته العملية تتكون من مرحلتين : نزول وصعود . فالنزول والهبوط هو ابتداء الخلق المادي ، وقبل الخلق لم يكن هناك نزول إذ كل العقول في مستوى واحد ، وإن اختلف ترتيبها ، وبظهور الزلة تكون العالم المادي وتواصل هذا الخلق طبيعيا إلى أن كانت الأرض أين سيبلغ التكوين الطبيعي أقصاه بوجود الإنسان . فالمخلوقات يمثلون في النظام الكوني دائرة أو للتقريب من الأفهام يمثلون مثلثا (كما في الشكل الآتي) كما ذكر علي بن الحسين بن الوليد في رسالته التي سماها بالضلع .

ونلاحظ أن هذه العملية ترتكز أساسا على مبدإ النشوء والارتقاء . فالاسماعيلية يتحدثون عن الصعود والارتقاء في سلم التكوين الطبيعي الذي يبتدىء بالمعادن باجتماع العناصر الأربعة ثم تلتقي بالنبات عند أرقاها حيث يمثل المشاكلة بين أرقى المعادن وأبسط النباتات أي أنه يحتوي على خصائص المعادن وخصائص النبات . ونقول كذلك في النبات الذي يبتدىء من أرقى المعادن لما له من خاصيات نباتية وينتهي بأرقى النباتات المشابه للحيوان ، ونقول

وأما قوله :

3 ــ وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا
كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ تَفَجُّعِ (120)

في الحيوان كذلك الذي ينتهي بالانسان الذي هو غاية الطبيعة ونهايتها ، وهو من جهة أخرى يعتبر بداية العالم الروحاني من جهة صورته . وترتقي صورته حتى تصل إلى الأصل الذي خرجت منه قبل الزلة . وان أنواع الموجودات من معادن ونبات وحيوان تمثل القمص التي تمر منها الحياة النازلة من العالم الروحاني لتصل إلى الصراط المستقيم الذي هو الانسان .



(120) إنما وصلت على كره لأن اللطيف الروحاني يكره مصاحبة الكثيف الجسماني . وربما كرهت مفارقة البدن إذ لم يكتسب السعادات ولأنها نسيت العالم الروحاني وأنست بالذات الجسمانية Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 160 .

فمراده بذلك ما تقدم ذكره من انحطاطها إلى هذا العالم جبْرا بغير اختيار ، وهبوطها قسرا بحكم الاضطرار ، وذلك أنه لما كان منها ما أوجبناه من التخلّف عن الإقرار والتمادي على الجحود والاستكبار ، أحاطت بها ظُلُمات الثلاثة الأبعاد (121) . وأوجبت الحكمة الإلهية الاقصاء لها والابعاد ، وعلم مُتولّي أمرها أن لا مقام لها في ذلك العالم الشريف النوراني ، والمحلّ القدساني الروحاني ، وأنه لاخلاص لها من دائها المُلازم لذواتها إلا بكرور الأزمان وحركات الأفلاك وامتزاج الأركان ، فجعل بعضها لبعض آلة ، ورتّبها في مراتبها منفعلة بمقتضى العدل وفعّالة . وذلك طريق الاكراه والاجبار الذي ليس له في شيء منه تصرّف بإرادته والاختيار ، منساقة فيه إلى الكمال الأول (122) الجسماني ، الذي هو التشخص بالقلب الإنساني ، وذلك معنى قوله : « وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ » ، وهو بالحقيقة إكراه بين تخييرين ، وعُسر بين يُسرَين . وما يَعْقِلُها إلا العَالِمُون . فسبحان من بدأ خلقه بالتخيير إيجابا للعدل وبه عقّب ، وجعل الجبر متوسطا بينهما ، لما رآه في الحكمة أولى وأوجب ، ولا إله إلا هو ربّ العرش العظيم .

وأما قوله : وَرُبَّمَا كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهيَ ذَاتُ تَفَجُّعِ

فمعناه أن جميع النفوس الخيّرة والشرّيرة تكره الموت . فأما النفوس الشريرة فإنها لما أنست بالعالم الطبيعي الحيواني والاستغراق في بحر الهيولي الظلماني ، ونَسيت ما فارقته من العالم الشريف الروحاني ، وخفي عليها حالها ، واستتر عنها مبدؤها ومآلها ، تمنت التمتع (123) بهذه الحياة الدنيوية الفانية ، واختارت التثبت بهذه الأجسام البالية ، وكرهت الموت جهلا بما تصير إليه ،

---

(121) وهي الطول والعرض والعمق .

(122) ذكرنا فيما تقدم أن الكمال الأول هو الوجود بالذات ، وهي القامة الالفية أو القالب الانساني ، وهي الولادة الجسمانية .

(123) في الأصل : التمنع .

وخوفا مما تقدم عليه . وأما النفوس الخيرة فإن أولياء الله لمّا تحققوا ما وقعوا فيه من هذه البليّة ، وعرفوا ما كان من الزلّة الموجبة لذلك الخطيئة ، وندموا على ما كان فرط من أمورهم فلاذوا بالمآب ، وغنموا إكتساب الخيرات بآلة هذا الجسم ما داموا في محل الاكتساب ، فلذلك كرهوا الموت .

وقد بين ذلك مشبعا الشخص الفاضل صاحب الرسائل – صلوات الله عليه – قال في كتاب مجالس التنظف لطهارة النفوس (124) قولا أوردناه هاهنا بكماله لما يشتمل عليه من المعاني الدقيقة والحِكم الغامضة العميقة التي تَحَـار فيها ثواقب الأفكـار ، ويلـوح من خلال ألفاظها للبصائر سنا برق الأنوار ، وهو : « اعلموا أيّدكم الله وإيّانا بروح منه أن الموت مكروه عند كافّة الناس . فكلّ يكره نزوله ويشقّ عليه حلوله لا لعلة واحدة بل لعلل مختلفة ، فالعلة التي لأجلها يكره أولياء الله الموت غير العلة التي لأجلها يكره أعداء الله الموت . وقبل أن نذكر شرح ذلك فلنقدم مقدمة تكون تنبيها وتوطئة لما أوردناه فنقول : إن النفس الناطقة في الإنسان خُصّت بثلاثة أفعال مـن « البشر » (125) . الأفعـال الشريفة الحسنة اللطيفة :

فصنف منها تؤديه النفس بمشاركة البدن وهو النطق الظاهر للحس ، أعني العبارة عن نطق الناطق والإشارة بالكلام الجاري على اللسان عن الكلام المصوز في الجنان . وبالجملة الاعراب عن الضمير والابانة عن ذات الصدور .

---

(124) لقد ذكر إخوان الصفاء أن لهم كتبا أخرى غير الرسائل المعروفة التي طبعت عدة مرات لذلك لم نعرف لهم إلى حد الآن أعمالا غير الرسائل ورسالة الجامعة التي نشرها جميل صليبا في جزءين دمشق 1948 . أما رسالة جامعة الجامعة والتي نشرها عارف تامر بيروت 1959 ، فكانت محل شك في أن تكون جزءا من رسالة الجامعة أو كتابا بمفرده . وذكرنا فيما سبق استنادا إلى هذه الرسالة التي نحن بصدد إعدادها للطبع أن لاخوان الصفاء رسالة بعنوان جامعة الجامعة . وتكشف لنا رسالتنا هذه عن كتاب آخر لاخوان الصفاء بعنوان : « كتاب مجالس التنظف لطهارة النفوس » . ويقدم لنا في نفس الوقت نصا من نصوص هذا الكتاب وبفضل تراث اسماعيلية اليمن تعرفنا على أشياء كثيرة تخص اخوان الصفاء . (انظر تنبيه 39) .

(125) لا نرى لكلمة البشر هنا معنى ، ويبدو أنها زيادة من الناسخ .

وصنف منها تؤديه بقوة الفكر واستحضار الذكر واستعمال النظر والرؤية لإستخراج الصور الخفية بالقياس على الأشياء الظاهرة الجلية ولاستنباط المعاني الدقيقة المستورة .

وصنف منها تؤديه بقوة الرأي والتدبير ، وتحصيل الأمور والتقدير ، وهو إثبات أفضل ما في طريق الإمكان ، واختيار خير ما في حدّ الجواز . فبهذا تعلم أن ذاتها وإن وصفت بالوحدة فهي من جملة قواها متكثرة . وإن أعم قواها النطق الظاهر ، وهو الفن بالكلام والعبارة باللسان والإعراب عن الضمير .

وأشرف قواها وأخصها الاختيار لأفضل ما هو في حدّ الجواز ، وإيثار خير ما هو في طريق الإمكان . وبهذه القوة تصير عارفة بذاتها ومعرفة لها إلى معاني ما يخصها ، ومميزة بحسن اختياراتها ، ومحصلة لما اقتنت في ذاتها ومرقية لها إلى أشرف الإخلاص ، ومعرفة إلى النجاة والخلاص .

ثم بهذه القوة تصير مدبرة للأنفس الناقصة ومفيضة عليها العلم والحكمة ، ومستخرجة لها بالتدريج والترقية والتمرين والتوطئة إلى أشرف الفضيلة وحقيقة الوسيلة .

وأفضل رتبة فيها وأعلى درجة منها وهي النبوة ورتبة الرسالة وقبول الوحي والإطلاع على أسرار الغيب ، وهو آخر درجة تبلغ إليها النفوس البشرية والأشخاص الإنسانية . وهو الإشراف على حقيقة الحق ، والواسطة بين الخالق والخلق . ومتى سعدت بها نفس من النفوس ، وأناف عليها شخص من الأشخاص سميت حينئذ نفسا مشفا وروحا مقدسة ورسولا ونبيا وسفيرا وأمينا ومحدّثا وملهما ووليا وصفيا وصديقا وشهيدا وبصيرا ، موافقا لإيثار المحامد المنجية ، ومعصوما من الذمائم المردية . وصار داعيا إلى الله — تع — وإلى مرضاته ، ومبلغا لكتبه ورسالته ، ومنبها على أسرار غيبه ، ومبينا لغوامض كتبه وقائما بين الله — ع ج — وبين عباده ، ومجاهدا في الله حق

جهاده ، إعلانا وإسرارا، وكتمانا وإظهارا وإنذارا ، ومبينا للناس ما نزل إليهم ، ومعرفا لهم ما فرض عليهم كما قال جل من قائل : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » (126) وقال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (127) ، من بعدهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون الذين يقضون بالحق وبه يعدلون : ثم من بعدهم علماء الأمم وامناء الملل وأولياء الله — تع — الأبرار والأبدال والأخيار والحكماء الألهيون والفلاسفة الربانيون ؛ ثم الفضلاء المبرزون العقلاء المخلصون ؛ ثم عامة الناس ودهماؤهم ؛ ثم البهائم ذوات القوائم الأربع ؛ ثم الحيوان ؛ ثم الأشجار والنبات ؛ ثم الأجسام والجمادات إلى آخر الموجودات المميزة كلها على اختلاف صورها وتباين فنونها وحركاتها ، وهو الممسك لمراتبها إلى خصائص درجاتها كما قال جل جلاله : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » (128) وكقوله : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ » (129) .

فالنفوس متفاوتة في قبول هذا النور . فأكثرها قبولا الملائكة المقربون ، ثم الأنبياء المرسلون ، ثم الأئمة والأولياء والابدال والحكماء والفضلاء والعلماء ، ثم الأمثل فالأمثل والأقرب فالأقرب .

فالموجودات كلها حصلت محفوظة معقولة مضيئة منيرة بتبليغ هدايته الشائعة السارية الفائضة الجارية في عالم العلوّ والسفل والكبير والصغير . ويزيد لهداية البرية أنه أوجد الجواهر كلها مهتدية للمصالح المتيمة لها طالبة للبقاء بقدر كلما (130) في امكان كل واحد منها مظهرا لما في قوته إلى الفعل ، أي

(126) إبراهيم ، 4 .
(127) النحل ، 44 .
(128) النور ، 35 .
(129) فاطر ، 41 .
(130) لعلها : ما .

أن كل شيء ينير بهذا النور ، ويبصر به ما هو خير له ، وإنها تنزل منزلة الحياة للجواهر ، التي لها قوة الإحساس ، وإنها هي تكسب الجواهر فضيلة النفوس الناطقية والسكون والطمأنينة إلى مدركاتها ، وكذلك شوقا نحو الإدراك والإحساس حتى تستكمل القوة البشرية في حال النوم فضلا عن اليقظة .

فأما قوة إظهار الفعل فتسميه الحكماء جود الله ؛ وأما طلبه للبقاء فتسميه الحكماء تقدير الله ؛ وأما الإهتداء للمصالح فتسميه الحكماء حكمة الله . وهذه الثلاثة بأجمعها تسمى سياسة الله – تع – . والعالم محفوظ معقول على قوامه ونظامه بكمال سياسته ، أي بجوده وتقديره وحكمته .

فكل واحد من سائر الموجودات يفعل بهذه الهداية المنيرة لذاته التي هي الاهتداء للمصالح وإخراج ما هو بالقوة إلى الفعل وطلب البقاء . ثلاثة أفاعيل أحدها راجع إلى صورته ، والآخر إلى مادته ، والثالث إلى استكمال ذاته وعينه المركبة منها . فيفعل بصورته فيما دونه ، ويقبل بمادته عمل من فوقه وتستكمل بعينه ذاته ، أعني يستكمل بهذين ذاته وعينه إذ هي الحاصل بين الطرفين ، والواسطة بين الحاشيتين ، تأخذ من كل واحد منها بنصيب ، فلا هو منفعل محض ولا فعّال محض بل هما جميعا .

فإذا تقرر هذا قلنا إن هذه الأمور الإلهية المنيرة لكافة البرية عامة ، فهي المشوقة للنفوس البشرية خاصة إلى اكتساب ما هو مختص بها من الأفاعيل التي بيناها فيما تقدم ، وهي راجعة إلى قسمين : إما أن تفعلها بمشاركة البدن وإما أن تفعلها بذاتها متفردة مجردة عن البدن.فالذي تفعله على الانفراد ثباتا لها على الدوام ولا يفوتها بحال لأنه لا سبب لذلك غير ذاتها وخاصة صفاتها ، فهي لا تحتاج في ذلك إلى غيرها ، ولا يحول أمر بين الفعل وبينها ما دامت مطلقة من الرباط ، معراة من الدنس ، وليس كذلك الشركة التي تكسبها بوساطة البدن ، فهي تستغنم ذلك وتنتهزه ، وتتمنى طول إمهالها لتكسب

بوساطته أفعالها ، وتقتني الفضائل الحاصلة بسببه ما دام البدن صاحبا لها ، عالمة أنها لا تقدر على ذلك إذا فارقته ، وتلفى فائزة بما اكتسبته .

فهذه العلة التي من أجلها يكره أولياء الله الموت الذي هو فراق النفس البدن ، وأحبوا الحياة التي بها تم اصطحابهما ، ولذلك جل استعمالهم الخيرات التي يخافون فوتها وهو العائق لهم عن الخيرات التي يخافون فوتها ، أعني التي يفعلونها بذوات أنفسهم ؛ وحق لهم أن يكرهوا الموت لهذه العلة لأنهم وجدوا من هذا البدن تمكنا ومن حياته فرصة في أن يأخذوا منه ذات اليمين . ورأوا أنها تؤديهم إلى الأمن والأمان ، والروح والريحان . وأن هذه النفس من البدن كانه رأس المال لها ، وترى لها فيه ربحا كثيرا وفضلا غزيرا ، إذا تاخرت به أحرزته فكرهت فراقه خوفا أن يفوتها الربح المتوقع والفضل المنتظر فيه ، لأن أولياء الله يرون هذا البدن وآلات بنيانه كالترجمان المتوسط بين كلام الله — تعالى — ورموز أسراره من آياته الناطقة الصادقة ، وبين لغات الناس واختلاف ألسنتهم وتباين عباداتهم ليدعوهم إلى الله فيهدوهم إلى التنزيل الدال عليه ، ما دامت معهم الآلات لهذا البدن ، فهم قادرون على أن يتلافوا الفوات ، ويحيوا الأموات ، ويعتقوا البدن من رقّ الشهوات ، وقيد الشبهات ، وحبائل المعاصي ، وليكونوا لهم الموالي فيكونوا من حزب الله — تعالى — المفلحين ، وعباده الصالحين ، للملك للآخرة والولاية الباقية ، ويكونوا خلفاءهم وهم يقومون مقامهم ، ويَسْتَنُّون بسنتهم ، ويتسببون بسببهم ، ويحيون بالعلم والذكر أنفسهم ، وغير ذلك مما يشاكله مما تؤديه النفس بمشاركة البدن ، فيكون طول أعمارهم زيادة في أعمالهم كما قال عليه السلام : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » (131) ولذلك كان أولياء الله يكرهون الموت ويحبون الحياة والبقاء .

---

(131) لم نجد صيغة هذا الحديث في الروايات السنية غير أن أحمد بن حنبل يذكر في مسنده في الجزء الخامس ص 267 قول الرسول لسعد بن أبي وقاص : يا سعد : « إن كنت خلقت للجنة فما طال عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك » .

وبالعكس من ذلك كره أعداء الله الموت وذلك أنهم حين وجدوا تمكنا من هذا الجسد وإمهالا من العمر أخذوا منه ذات الشمال ، فعموا عن طريق الحقائق وحدود البصائر ، وظنوا أن الموت لهم فناء ودثور ، وأن حكم الإنسان حكم الحيوان والنبات ، لأنهم تأملوا أمورهم وتفكروا ، فوجدوا النبات يتكون وينشأ ويبلغ إلى غايته ومبدأ نهايته ، ثم يتلاشى ويفسد ويضمحل ويبيد ويتكون مثله الجديد ، وهكذا أمر الحيوان . فلما رأوا ذلك على ما وصفناه ، جعلوه قياسا على حال الإنسان فقالوا : ننشأ ونبلى ونموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر ، قال الله — تع — : « وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّن وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ » (132) وقال : « وَإِن الظَّن لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا » (133) ، فلذلك كرهوا الموت لأنهم اعتقدوا أنه يؤديهم إلى العدم الذي لا وجود معه ولا حياة سواه .

وبعضهم أقروا بالمعاد قولا ولا يعتقدون حقيقة « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » ، يئسوا من رحمة الله لما أخذوا ذات الشمال فنفوا عن آيات الله ، وحصلوا محجوبين عن ربهم ، لا يعرفون سوى الحياة الدنيا فيكرهون مفارقتها ، ويرون الموت يؤديهم إلى الفساد .

ومنهم من يقر بالمعاد بألسنتهم من غير تصور منهم له بقلوبهم ولا معرفا بحقيقته في عقولهم ، فإقرارهم إيمان وتسليم لقول الأنبياء وتقليدهم فيمة يقولون ، فهم واقفون بين الحول والقوة واليأس والطمع ، لا يعرفون كيف تكون عاقبة أمرهم وخاتمة عمرهم ، فهم يكرهون الموت لكونهم لا يتحققون على ما يردون ، ولأي حال ينقلبون .

---

(132) النجم ، 23 .
(133) النجم ، 28 .

ومنهم من يركن إلى الدنيا ويميل إلى ظواهر أمورها ، وينخدع بزخرف غرورها ، ويألف شهوات هذا البدن ولذاته الحاصلة لهم بطريق الحواس ، ويكرهون الموت لما فيه من مفارقتها وانقطاع لذاتها وانصرام شهواتها .

وبالجملة فالوليّ والعدو يكرهان الموت ويتجنبان الفوت ، ويكونان من مفارقة هذا الجسد على حسرات وغصص . أما الولي فيرى بمفارقته تفوته الأرباح والمنافع الحاصلة بتوسط البدن والخيرات التي هي باشتراكه إليه واصلة ؛ والعدو يرى خسارة الحياة وهجوم وفاته وتواتر تأسفه وحسراته على ما ضاع منه ، ولم يعمل بالخلاص فيه .

واعلموا ، أيدكم الله - تع - وإيانا بروح منه ، أن جميع أنواع الحيوانات تكره الموت وتحب البقاء لما بينا في أول الفصل ولما سوف نذكره في آخره أيضا ، وذلك أن لمحبة (134) الحيوانات الحياة وكراهيتهم الموت علتين : إحداهما ما يلحق نفوسهم من الأوجاع والآلام ، وأجسادهم من البلى والفساد عند الموت ؛ والعلة الأخرى ما في طباع الموجودات وغرائز جواهرها من المحبة للبقاء والهرب مما يؤديها إلى الفناء ، كما بينا فيما سلف ، وأن ذلك هداية الله السابقة السارية في جميع الموجودات .

واعلموا أن العلة في كون هاتين الحالتين في جبلة الخلقة وغريزة جوهرها ، أعني محبة البقاء وكراهية الفناء ، فهو من أجل أن الباري - جل ثناؤه - لما كان محدث الموجودات وسبب الكائنات ومبقيها ومكملها ، وهو أبدي الوجود دائمه ولازمه ، جعل في جبلة الخلقة محبة البقاء الذي هو الوجود وكراهية الفناء الذي هو العدم . فهم ينجذبون بالطبع شوقا إلى البقاء وهربا من الفناء . ولما كان قبولهم الوجود ضربا من الحركة التي بها خرجوا من العدم إلى الوجود جعل ببالغ حكمته سبب بقائهم ضربا من الحركة التي بها

---

(134) في الأصل : محبة .

طلب البقاء والهرب من الفناء . فكانت هذه المحبة والكراهية داعية للنفوس الى طلب المواد والأسباب والأمور التي بها يتم بقاؤها ويبلغها إلى أتم الغايات وأبلغ النهايات .

واعلموا أن عامة الناس أشد كراهية للموت من غيرهم ، وذلك أن كثيرا من الناس لا يتحققون أمر منقلبهم ومثواهم ، وكيف معادهم ومأواهم ، لا يدرون عاقبة وخاتمة عمرهم ، وإلى ماذا يصير مرجعهم فيكونوا أشد كراهية للموت من غيرهم » .

هذا قوله – أعلى الله قدسه – وكفى به بيانا لمعنى قوله – قس – : « وَرُبَّمَا كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ تَفَجُّعِ » .

والحمد لله الذي منّ علينا بهداية أوليائه ، وحمانا من الوقوع في حبائل أعدائه ، حمدا كثيرا دائما سرمدا .

4 – أَنِفَتْ وَمَا أَنِسَتْ فَلَمَّا وَاصَلَتْ
أَلِفَتْ مُجَاوَرَةَ الخَرَابِ البَلْقَعِ (135)

فمعناه ما تقدم شرحه في الفصل الذي قبل هذا الباب من الفتها بعالم الأجسام بعد الالفة ، وميلها إلى خزعبلات الطبيعة المهلكة لها . وقد ضرب صاحب الرسائل – صلوات الله عليه – في ذلك مثلا أشار به إلى ما كان من مفارقة النفوس لدار البسائط الروحانية ، ومقارنتها للهياكل المركبة الجسمانية ، وانسها بها بعد النفور (136) والوحشة ، وصبوها إليها بعد التحير عند الوقوع فيها والدهشة .

وأوردناها هنا مجملا لما يحتوي عليه من الدلالة الشافية ، والحِكَم الجلية الوافية ، والإشارات الواضحة في معنى المبدأ والمعاد ، والتنبيهات الكافية

---

(135) انفت أي استنكفت ، واصلت أي واصلت البلقع الخالي لأن البدن من حيث هو بدن خال عن الكمالات الروحانية والنفسانية . Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 160

(136) في الاصل : النفوس .

لذوي الصلاح والسداد ، وهو قوله ـ ع ج ـ في رسالة بيان اعتقاد إخوان الصفاء (137) « ذكروا أنها كانت مدينة على رأس جبل في جزيرة من جزائر البحر ، مخصبة كثيرة النعم ، مرخية (138) البال ، طيبة الهواء ، وعذبة المياه ، حسنة التربة ، كثيرة الأشجار ، لذيذة الثمار ، كثيرة أجناس الحيوان (139) على حسب ما تقتضيه تربة تلك الجزيرة وهواها (140) ومياهها . وكان أهلها إخوة وبني عم من نسل رجل واحد ، وكان عيشهم أهنأ عيش ، [وكان يتجدد ما بينهم من الود] (141) والمحبة [و] الرحمة والشفقة والرفق ، [بلا تباغض ولا حسد] (142) ولا شيء من العداوة وأنواع الشرور ، وربما (143) يكون بين أهل المدن الجائرة المتضادة الطباع المتنافرة القوى ، المتباينة (144) الآراء القبيحة الاعمال السيئة الاخلاق [وكانوا مستقيمين في الاخلاق] (145) .

ثم إن طائفة (146) منهم ركبوا البحر فانكسر بهم المركب ، ورمى بهم الموج إلى جزيرة أخرى فيها جبل وعر وفيها أشجار عالية ، وعليها ثمار نزرة ، وفيها عيون غائرة ومياه كدرة ، وفيها مغارات مظلمة ، وسباع ضارية ، وعامة أهل تلك الجزيرة قردة . وكان في بعض جزائر البحر طير عظيم الخلقة ، شديد القوة ، قد سلط عليها في كل يوم وليلة ينقض عليها (147) ويخطف من تلك القردة عددا .

(137) رسائل اخوان الصفاء ج 4 ص 37 .
(138) في الرسائل : رخية .
(139) رسائل : الحيوانات .
(140) رسائل : أهويتها .
(141) رسائل : يكون بتودد ما كان بينهم من .
(142) رسائل : بلا تنغيص من الحسد والبغي .
(143) رسائل : كما .
(144) رسائل : المشتتة .
(145) ناقصة من الرسائل .
(146) رسائل : من أهل تلك المدينة الفاضلة .
(147) رسائل : يكر عليهم .

ثم إن أولئك النفر الذين نجوا من الغرق تفرقوا (148) في تللة الجزيرة وفي أودية الجبل يطلبون ما يقتاتونه من ثمارها لما لحقهم من الجوع والعطش ، ويشربون من ماء تلك العيون ، ويستترون بأوراق الشجر ، ويأوون بالليل إلى تلك المغارات ، ويقيلون فيها (149) من الحر والبرد ، وأنست بهم تلك القردة وأنسوا بها ، إذا كانت أقرب السباع (150) شبها بصورة الانسان ، فولعت بهم إناث القردة وولع بها منهم من كان به من الشبق ما حمله على إتيانها ، فحملت منهم ، وتولدت ، وتناسلوا وكبروا (151) ، وتمادى بهم الزمان واستوطنوا تلك الجزيرة ، واعتصموا بذلك الجبل ، وألفوا تلك الحال ، ونسوا بلادهم ونعيمهم وأهاليهم ، وجعلوا يبنون من حجارة الجبل منازل ويحرصون ويدخرون في جمع تلك الثمار ويتنافسون على إناث تلك القردة ويغبطون من كان له حظ منها ، وتمنوا الخلود هنالك ، وانشبت بينهم العداوة والبغضاء ، وتوقدت بينهم نيران الحرب .

ثم إن رجلا منهم رأى فيما يرى النائم كأنه قد رجع إلى بلده الذي خرج منه ، وأن أهل بلده لما سمعوا بمجيئه خرجوا واستبشروا ، واستقبلوه خارج المدينة فرأوه قد غيره السفر والغربة ، وكرهوا أن يدخل على تلك الحال ، وكان على باب المدينة عين ماء فغسلوه ، وحلقوا شعره وقصوا أظفاره ، وألبسوه ثيابا جددا وطيبوه (152) ، وحملوه على دابة ودخلوا به المدينة . فلما رآه أهله استبشروا به وجعلوا يسألونه عن أصحابه وسفرهم ، وما فعل الدهر بهم [وعن حال بلدهم وأهليهم والنعمة التي كانوا فيها] (153) ، واجتمعوا حوله يتعجبون منه ومن رجوعه بعد اليأس ، وهو فرح بهم وبما

(148) في الاصل : من السفينة تصرفوا ، والاصلاح من الرسائل .
(149) رسائل : ويعتصمون بها .
(150) رسائل : أجناس السباع .
(151) رسائل : وكثروا .
(152) رسائل : وبخروه وزينوه .
(153) ناقصة في الرسائل ، وهو الاصح .

نجاه الله ـ تعالى ـ من الغربة وذلك الغرق ، ومن صحبة تلك القردة وتلك المعيشة النكدة ، وهو يظن أن ذلك جميعه يراه في اليقظة . فلما انتبه إذ هو بين تلك القردة ، فأصبح حزينا منكسر البال زاهدا في ذلك المكان ، مغتما متفكرا راغبا في الرجوع إلى بلده .

فقص رؤياه على أخ له فتذكر ذلك الأخ ما أنساه الدهر ، فتشاورا فيما بينهما وأجالا الرأي وقالا : كيف السبيل إلى الرجوع ، وكيف النجاة ؟ فوقع في فكرهما وجه الحيلة بأن يتعاونا ويجمعا من خشب تلك الجزيرة وينشئا (154) مركبا في البحر ويرجعا إلى بلدهما ، فعقدا بينهما عقدا وميثاقا أن لا يتخاذلا ، بل يجتهدان إجتهاد رجل واحد ، فلما عزما فكرا بأنه لو كان لهما ثالث لكان أعون لهما في ذلك ، وكلما زاد في عددهم كان أبلغ في الوصول إلى مطلبهم ومقصدهم ، فجعلوا يذكرون إخوانهم الذين خرجوا من بلدهم ويرغّبونهم في الرجوع ويزهّدونهم في المقام حتى التأم إليهم جماعة من القوم على أن يبنوا السفينة يركبون فيها ويرجعون إلى بلدهم .

فبينما هم في ذلك دائبون في قطع الأشجار ونشر الخشب لبنيان السفينة إذ جاء الطائر الذي كان يخطف القردة ، فاختطف رجلا منهم فطار به في الهواء ليأكله ، فلما أمعن في طيرانه تأمله فإذا هو إنسان ليس من القردة التي إعتاد أكلها ، فمضى طائرا حتى صار على الجزيرة التي هو منها ، فطرح به على سطح بيته وخلاّه ، فلما تأمل الموضع إذا هو في بلده ومنزله ، فجعل يتمنى لو أن ذلك الطير يخطف كل يوم من إخوانه واحدا ويرده إلى بلده كما فعل به . وأما أولئك القوم فبعد أن اختطفه جعلوا يبكون عليه ويحزنون وبقوا محزونين على فرقته ، لأنهم لا يعلمون ما فعل به ذلك الطائر ، ولو أنهم علموا به (155) لتمنوا ما تمنى (156) .

(154) رسائل : ويبنيا .
(155) رسائل : بحاله وما صار إليه .
(156) رسائل : لهم أخوهم .

وهكذا ينبغي أن يكون اعتقاد إخوان الصفاء فيمن سبقته المنية قبل صاحبه ، لأن الدنيا تشبه تلك الجزيرة ، وأهلها يشبهون القردة ، ومثل الموت مثل ذلك الطائر ، ومثل أولياء الله مثل القوم الذين انكسر بهم المركب . ومثل الدار الآخرة مثل تلك الجزيرة التي فيها بلدهم وأهاليهم » هذا قوله – صلعم – قد بين معه ما اشتمل عليه البيت المقدم ذكره فاعلم ذلك .

فصل

5 – وَأَظُنُّهَا نَسِيَتْ عُهُودًا بِالحِمَى
وَمَنَازِلاً بِفِرَاقِهَا لَمْ تَقْنَعِ (157)

فهو تأكيد لما ذكرناه من ارتباطها في عالم الأجسام ، ونسيانها للعالم اللطيف محلّ المصطفين الأخيار من الملائكة الكرام ، كما تقدّم ذكرُه في الحكاية الموردة في الفصل الذي قبل هذا الفصل . ونسيان أولئك القوم الذين انكسر بهم المركب ووقعوا في تلك الجزيرة ونسوا مدينتهم التي خرجوا منها ونشأوا فيها ، وما كانوا عليه من النعم الكاملة والراحة الشاملة . وفي بعض ذلك كفاية في هذا المعنى .

وأما قوله :

6 – حَتَّى إِذَا حَصَلَتْ بِهَاءِ هُبُوطِهَا
مِنْ مِيمِ مَرْكَزِهَا بِذَاتِ الأَجْرَعِ (158)

(157) أي نسيت بمؤانسة البدن عهود جيران الحمى والمنازل العلوية التي بفراقها لم ترض .
Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 160.

(158) قيل يريد بهاء الهبوط هذا العالم الحسي ، لان الهبوط ينتهي به و لها نسبة مع هذا العالم بحسب الكتابة لما فيها من العقد . ويريد بميم المركز العالم العقلي لأن النفس ترد عنه وترجع إليه ، فتكون أولا و آخرا كالميم في تركيبه . والأحسن أنه يريد بهاء الهبوط أول تعلق النفس بالبدن . وبميم المركز أول الحصول في العالم الروحاني ، وبثاء الثقيل في البيت الآتي ذكره أول ما يتكون في البدن من متعلقات النفس وهو القلب والروح الحيواني لأن النفس عند ارسطو والشيخ ومن تبعهما حادثة مع حدوث البدن وأول ما يتكون من متعلقات النفس عندهم القلب والروح . فالمعنى أنه إذا اتصلت بالبدن في ابتداء الحدوث علقت بها القلب والروح الحيواني . ومراده بذات الأجرع المادة البدنية لأنها من حيث هي قواها لا تفيد شيئا من الكمالات الروحانية. Carra de Vaux, la Kaçidah, pp. 160-161.

7 ـ عَلِقَتْ بِها ثَاءُ الثَّقِيلِ فَأَصْبَحَتْ
بَيْنَ المَنَازِلِ وَالطُّلُولِ الخُضَّعِ (159)

فمعناه تكرار الشرح فيه من قضية الهبوط والتعلّق بالجسم المُكَنَّى عنه بثاء الثقيل عند السقوط والبلوغ إلى المركز الذي هو الأرض بتدبير مَن له البَسْط والقَبض . فاعلم ذلك .

8 ـ تَبْكِي إذَا ذَكَرَتْ عُهُودًا بِالحِمَى
بِمَدَامِعٍ تَهْمِي وَلَمَّا تَقْلَعِ (160)

9 ـ وَتَظَلُّ سَاجِعَةً عَلَى الدِّمَنِ الَّتِي
دُرِسَتْ بِتَكْرَارِ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ (161)

فذلك كنايةٌ عما لَحِقها من النّدم والتحسّر على ما فاتها من حقيقة الوجود ، إذ حصلت في حيّز العدم ، وبهذه الندامة الحاصلة لذاتها يكون ارتقاؤها في درج الصعود وتعلّقها بحبل الحياة الممدود ، والتزامها بأرباب الهداية من الأئمة والحدود ، ـ سلام الله عليهم ـ .

---

(159) قد مر معنى ثاء الثقيل ، والمراد بالثقيل البدن . والمعالم جمع المعلم وهو موضع العلم وهو العلامة . والطلول جمع طلل وهو ما بقي من آثار الدار . والخضع جمع خاضع وهو المتواضع ، يعني إذا اتصلت النفس بالبدن صارت بين المعالم والطلول الوضيعة . ويريد بثاء الثقيل أجزاء البدن وقواها الضعيفة بالنسبة إلى العالم الروحاني .
Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 160.

(160) يعني تبكي الورقاء بمدامع غير منقطعة إذا ذكرت عهودا مع جيران الحمى ، المدامع جمع مدمع وهو موضع الدمع ، والدمع أيضا . تهمي تسيل . لما تقلع أي لم تقف
Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 161.

(161) ظل يفعل كذا أي فعله نهارا ، يقال سجع القمرى إذا صاح وترنم ، الدمن جمع دمنة وهي ما تسود من آثار الدار ، ويريد بها أجزاء البدن . والرياح الأربع : الصبا والدبور والشمال والجنوب . ويريد ههنا الكيفيات الأربع : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .
Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 162.

فصل

وقوله :

10 – وَغَدَتْ مُفَارِقَةً لِكُلِّ مُخَلَّفٍ
عَنْهَا حَلِيفَ التُّرْبِ غَيْرَ مُشَيَّعِ (162)

11 – إذْ عَاقَهَا الشَّرْكُ الكَثِيفُ وَصَدَّهَا
فَقَفَصٌ عَنِ الأوْجِ الفَسِيحِ الأرْفَعِ (163)

فذلك إشارة إلى الجسم الكثيف المُظلم الذي فارقته ، والهيكلِ الظلماني الذي ارتبطت به فسكنته ، فعاقها عن الرجوع إلى عالَمها الشريف ، والعودة إلى محلّها ، الذي فارقته ، النوراني اللطيف .

وقوله : حَلِيفَ التُّرْبِ غَيْرَ مُشَيَّعِ

يعني عودته إلى الأرض التي كان فيها وأنشىء عليها واستمدّ غذاؤه عنها ، إذ عادت النفس إلى محلّها ، ورجعت أجزاؤها إلى كلّها فائزةً بالسلامة ، حاصلةً في دار المقامة ، كما قال بعض الحدود – قس – :

إذْ كُلُّ جِنْسٍ لاحِقٌ بِالجِنْسِ وَجَوْهَرٌ يَلْحَقُ رُوحَ القُدْسِ

ألحقنا الله بموالينا وحشرنا في زُمرتهم ولا حرمنا مقبول شفاعتهم والكون في جملتهم ، بفضله وكرمه .

---

(162) يقال خلفه إذا تركه خلفه ، والخليف المخالف والمعاهد . الترب جمع تراب ، أي صارت مفارقة عن البدن وأجزائه وقواه التي هي معاهدة التراب غير متابعة لها .
Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 162.

(163) العوق : المنع ، والشرك جمع شركة وهي شبكة الصائد ، والأقرب أنه اسم الجنس ، ولهذا ما انث الكثيف . الصد : الصرف . الفسيح : الواسع . المربع : المنزل في الربيع ، ومعناه أن سبب بكاء النفس أن العلائق الجسمانية والنقائص الهيولانية عاقتها عن تحصيل الكمالات ، فصرفها ذلك النقصان عن الصعود إلى العالم الروحاني
Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 162.

12 — حَتَّى إذَا قَرُبَ المَسِيرُ إلَى الحِمَى
وَدَنَا الرَّحِيلُ إلَى الفَضَاءِ الأوْسَعِ (164)

مقصوده بذلك وصول هذه الحياة الهيولانية إلى القامة البشرية والصورة الإنسانية التي هي آخر الوجود الذّاتي وأول الوجود الصوّري بعد أن جاوزت الصراط المعوجّ المُنحَني (165) ، وصارت واقفة على الصراط المستقيم متهيئة . فإن قارنها التوفيق للدخول في أبواب جنات النعيم والصعود في سلّم النجاة نالت الكمال الثّاني فائزة بالسيحان في الفضاء الأوسع القُدساني الروحاني . فاعلم ذلك .

13 — سجعتْ وَقد كُشِفَ الغِطاءُ فَأبْصَرَتْ
مَا لَيْسَ يُدْرَكُ بِالعُيُونِ الهُجَّعِ (166)

فهو انه لمّا انتهى (167) التي هي آخر أبواب عالم الكون والفساد ، وحصلت في دائرة الوجود بامتثال طاعة أئمة الرشاد ، وصعدت في المر قي

(164) المسير هنا السير . والحمى الدنيا هنا . والفضاء الأوسع : العالم الروحاني
Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 162.

(165) تمثل المواليد الثلاثة من معادن ونبات وحيوان الصراط المعوج المنحني . وقد مر عليها الانسان في هيئة الحياة السارية النازلة من العالم حتى وصل الصراط المستقيم وهو الانسان . ويقول المؤيد : « إن المواليد تضعهم الوالدات منكسين على الرؤوس دلالة على خروجهم إلى العالم المنكوس ثم يقوم ذوو القامة الالفية متهيئين للنظر إلى فوق وإلى أسفل دلالة على أنهم في الوسط بين عالم الكثافة ، فإن نظر ناظرهم إلى فوق تأدبا بالآداب الملكوتية لحق بعالم الملائكة ؛ وإن نظر إلى أسفل كان كما قال الله —تع— : « أولئك كالأنعام بل هم أضل» وشاهد ذلك من الكتاب العزيز قوله — سبحانه — : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها» وهو معنى نظره إلى ما هو فوق وإلى ما هو أسفل . فقال الله — تع — في موضع آخر : « أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم » ، فالمكب على وجهه البهيمة المطرقة إلى الأرض التي منها بدؤها وإليها معادها ، والذي يمشي سويا على صراط مستقيم هو الإنسان المفارق بنفسه وعقله للدنيا وإن كان حاضرا بجسمه » . مجالس ، ج 4 ص 31 — 32 .

(166) الهجع جمع هاجع وهو النائم ليلا ، أي لما فارقت العالم الجسماني واتصلت بالعالم الروحاني أدركت من الحقائق والأعيان بالبصيرة ما لا يدرك بالعيون البدنية النائمة كما حصل قبل المفارقة مقتبسا من كلام علي — رضي الله عنه — حيث قال : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا . Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 163

(167) هنا نقص لعله : لما انتهت إلى القامة البشرية .

النفسانية ، واطلعت على مراتب الحدود الجسمانية والحدود الروحانية القدسانية ، وانتقشت ذاتها بالعلوم ، واتضح لها على قدر مرتبتها كلّ محجوب عمّن دونها من ذلك مكتوم ، وانكشف لها الغطاء عن مكنونات السّرائر ، وبرح لها الخفاء فرمقت مستوراتها بعيون البصائر ، فانتبهت حينئذ من نوم الغفلة ، واغتنمت بالفرصة في اقتناء المعارف في زمن المهلة ، ونطقت بلسان الحكمة والاعتبار ، معبّرة عن مضمر جنانها ، متشوقة إلى اللحوق بالصالحين وأشكالها وإخوانها ، بقول الشاعر شعرا :

وأبْرَح مَا يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْمًا إذَا دَنَتِ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَارِ

وكما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — صلوات الله عليه — : « لَو كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا » (168) لتحقّقه ما عند الله —تع— من الزُّلفى والقربة ورفيع الدرجة وسامي الرتبة . قال عند وقوع الضربة : فزت وربّ الكعبة (169) وكما قال بعضهم ، أعني السلطان الأجل الخطاب ابن الحسن — أعلى الله قدسه — من جملة قصيدة له (شعرا) : (طويل)

وَيَا سَفَرِي هَذَا الطَّوِيل عَسَى الذِي
قَضَى بِكَ يَقْضِي أوْبَتِي وَأدَائِي
وَيَا شَبَحِي العواق لِي عَنْ مَآرِبِي
عدمتك مَا أنْتَ مِنْ قُرَنَائِي
صَحِبْتُكَ مُذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ
فَلَمَّا انْجَلَتْ فرغت عَنْكَ وِعَائِي

(168) انظر رسائل اخوان الصفاء ج 3 ص 337 حيث جاء : « ولما تحقق أولياء الله -- تعالى — فهم هذه الآيات وعرفوها حق معرفتها ، شرح الله قلوبهم ونور أبصارهم ، وكشف الغطاء عنهم ، حتى رأوه وشاهدوه بأبصارهم ، كما عرفوه بقلوبهم ، وكما ادعى أسد الله في الأرض : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » أراد بذلك أني أراه في هذا الوقت مثل ما أراه في الآخرة ؛ انظر كذلك ، حيدر آملي ، جامع الأسرار ص 118 ، 173 ، 229 ، 415 ، 605 .

(169) عنى به ما قاله علي بن أبي طالب لابن ملجم حين ضربه الضربة التي مات بها .

فَهَلْ لَكَ مِنْ بَيْنٍ يُفَرِّقُ بَيْنَنَا
فِرَاقَ تَقَالٍ قَاطِعٍ وَتَنَائِي
وَيَلْحَقُ مِنَّا كُلَّ جِنْسٍ بِجِنْسِهِ
وَمُشْبِهُهُ مِنْ تُرْبَةٍ وَسَمَائِي
وَإِنِّي لأَرْجُو ذَاكَ وَاللَّهُ كَافِلٌ
بِتَبْلِيغِ آمَالِي وَنَيْلِ رَجَائِي
وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ مَا الَّذِي
إِلَيْهِ مَعَادِي عِنْدَ كَشْفِ غِطَائِي
وَمَا أَنَا لاَقٍ مِنْ نَعِيمٍ مَتَى أَرُمْ
لَهُ الوَصْفَ يَعْجِز فِكْرَتِي وَذَكَائِي

إلى آخر ما ذكره من هذه القصيدة . فهذا معنى ما ذكره في البيت فاعلم ذلك .

14 — وَغَدَتْ تُغَرِّدُ فَوْقَ ذِرْوَةِ شَاهِقٍ
وَالْعِلْمُ يَرْفَعُ قَدْرَ مَنْ لَمْ يُرْفَعِ (170)

فنقول : إنه قد سبق تفسير هذا البيت في الذي قبله ، يعني ما لوّح به من تغريدها وسجعها ، وانه عبارة عما أطلعت عليه من العلوم الربانية ، ووصلت إلى معرفته من الأسرار الغامضة والحقائق ، واشتياقها إلى اللحوق بأمثالها المتجردين ، وقربها لمفارقة أضداد الدين المتمرّدين . « بِذِرْوَةِ شَاهِقٍ » يعني ما انتهت إليه من الكون في هذه القامة الالفية المشبهة للذوات الأولى الابداعية ، وتدرّجت في مراتب الحدود ، وصعدت في مراقيه من منازل السعود ، فأصبحت في الذروة العالية حائزة الكمالين الذاتي والصوري ،

---

(170) التغريد ترجيع النغمة . والذروة أعلى الجبل . والشاهق : الجبل العالي ، ويريد ههنا العالم الروحاني يعنى إذا تحلت بحلية العلم وترقت من العقل الهيولاني إلى العقل بالفعل والعقل المستفاد وصلت إلى أعلى المقامات وترنمت إذ العلم يجعل الوضيع شريفا كقوله تعالى : « والذين أوتوا العلم درجات » Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 163

متشوّقة للظهور بالمقام الأشرف النوراني والشبح الأفضل الكافوري (171) فيتطلّع منها إذ ذلك نور النور ، ويتجلّى بها الحق عند الظهور .

وأمّا قوله : وَالْعِلْمُ يَرْفَعُ قَدْرَ مَنْ لَمْ يُرْفَعِ

فكيف لا يكون ذلك كذلك وهو المغناطيس الأكبر الجاذب للنفوس الشريفة إلى دار المعاد ، المحافظ لذواتها من التلاشي والفساد ، والصابغ لها صبغة الله الحسنة البهية ، والمخلص لها أنوار العالم الأعلى المشرقة المضيئة ، السالب عنها العادات الردية والأخلاق البهيمية ، المكسب لها الشّيَم الرضية الملكية ، المُجوهِر لذاتها بعد أن كانت في أعداد الأعراض ، القاضي لها بدوام السعادة وبلوغ الأغراض ، المُرقي لها إلى جوار الملك الجبّار ، المُوصل لها إلى جنة المأوى آمنة من الشقاوة والخسار ، المؤزل لها على ممرّ الدهور والأعصار ، حبل الله المتين الذي من اعتصم به فاز ونجا ، وعروته الوثقى التي من استمسك بها خرج إلى ضياء الأنوار من دياجير الدُّجى . قال علي بن أبي طالب — صلوات الله عليه — : « إذا أرذل الله عبدا حظر عليه العلم » وقال — صلعم — : « ما أعطى الله عبدا علما إلا استنقذه به يوما ما به سبق السابقون في التقدم وببركته يخرج المتأخرون إلى الوجود من مضمار العدم ، وهو الاكسير الأكبر (172) والعمود الأشرف الأنور ، فقدره لا يحيط به صفة الواصفون ، وفضله لا يرتقي إلى حدّه أوهام العارفين .

(171) يقول الحسين بن الوليد في ترقي الحدود في مراتب الدعوة : «ثم ينتقل الباب وتتصل نفسه الكريمة وهيكله النوراني – الذي كان في ضمنه – بنفس المولود الامامي في مدة أقربها أربعون يوما وأبطاها أربع سنين ، فيصير ذلك الهيكل النوراني مشرقا على ذلك الغلاف الذي هو جسم الإمام . فالهيكل النوراني هو الإمامة ، والجسم الكافوري هو الإمام ، وهو يسمى « الغلاف » ويسمى « الشبح الكافوري » ويسمى « الناسوت » ويسمى الهيكل النوراني « اللاهوت » ونفس ذلك المولود هي الحاملة للهيكل النوراني . رسالة المبدإ والمعاد ص 120 ضمن ثلاث رسائل اسماعيليـة Trilogie ismaélienne تحقيق هنرى كوربان .H. Corbin

(172) العلم هو المغناطيس الأكبر الجاذب للنفوس الشريفة والحافظ لها من التلاشي والفساد ، ويسميه الاسماعيلية بعمود النور ، والساري ، والجاري ، والمادة الإلهية ، والاكسير الأكبر ، وهو التأييد الذي يسري من العقل الأول ويتصل بكل الحدود ، ومن لاحظ له في هذا التأييد لا مكان له في عالم الأرواح . وهذا العلم هو الذي يعطي الكمال الثاني وهو كمال الصورة . انظر ثلاث رسائل Trilogie : الينابيع ص 3 ، 94—96 ، رسالة المبدأ والمعاد ص 113 ، 117 تحقيق هنري كوربين H. Corbin

15 ـ فَلأيِّ شَيْءٍ أهبِطَتْ مِنْ شَاهِقٍ
سَامٍ عَلَى قَعْرِ الحَضِيضِ الأوْضَعِ (173)

فنقول : إنا قد أوضحنا سببَ هُبوطها فيما تقدّم من الكلام ، وانحصارها في مضائق عالم الأجسام ، وان ذلك لتخلّفها عن الاعتصام بدرجة العالي عليها ، وتأخرها عن الالتزام بالطاعة لمَن ألزمت طاعته وندبت إليه ، فحجبها ذلك عن الاتصال بقسطها من الكمال الثاني ، وأوجب خروجها إلى العالم البائد الفاني . وفيما سبق من ذلك غنى عن تكراره .

16 ـ إنْ كَانَ أهْبَطَهَا الإلَهُ لِحِكْمَةٍ
طُوِيَتْ عَنِ الفَطِنِ اللَّبِيبِ الأرْوَعِ (174)

فإنا نقول : قد تكرر القول بالسبب الموجب لهبوط ما هبط من المَحلّ العالي وانحداره متشبثا بعالم الجسم الكثيف البالي ، وما كان من تحنّن عقول عالم الابداع وعطفها عليه بالشفقة واسراء المواد الشريفة إليه لتكميل ناقصه واصعاد ناكصه وإفادته ما فاته من الكمال الذي به تمام جوهره ، واستماعه منه ما حجبه سابق زلته وعظيم نكره على ما ذكره في الأبيات التالية لهذا البيت . وهذه الحكمة هي التي طويت عن ألباب الخلق فلا يوصل إليها إلا من ألْسِنة أولياء الحق وأرباب الصدق ، ولا يعرفها إلا من مَنّوا عليه بها من المستحقّين ، ولا يَشرب صافي مَعينها إلا مَن أرشدوه من أوليائهم المحقين . فاعلم ذلك .

---

(173) أهبطت : أنزلت . الشامخ : العالي أعلى الجبل. والحضيض : أسفل الجبل . الاوضع : الادنى . هذا البيت مع ما بعده يشتمل على سؤال يرد على اتصال النفس بالبدن Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 163.

(174) طويت من الطي وهو جواب الشرط في قوله : إن كان . الند : الفذ اللبيب . العاقل الاروع : الذكي الذهن . Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 164

17 — فَهُبُوطُهَا لاَ شَكَّ ضَرْبَةُ لاَزِبٍ
لِتَعُودَ سَامِعَةً وَلَمَّا تَسْمَعِ (175)

18 — وَتَعُودَ عَالِمَةً بِكُلِّ خَفِيَّةٍ
فِي العَالَمِينَ وَخَرْقُهَا لَمْ يُرْقَعِ (176)

كأنه يريد بذلك ما سبق القول ممّا يتصل بذاتها من العلوم المكنونة والحكمة المصونة المخزونة ، التي بها كمالُ جوهرها وشرفُ عنصرها ، واطلاعها من أسرار العالمين ، عالم الكثافة وعالم الصفاء ، على ما كان عندها في حدّ الاستتار والخفاء قبل أن يرقع بالوصول إليها خرقها ، ويعتق بالاطلاع عليه رقها . فاعلم ذلك .

19 — وَهْيَ الَّتِي قَطَعَ الزَّمَانُ طَرِيقَهَا
حَتّى لَقَدْ غَرُبَتْ بِغَيْرِ المَطْلَعِ (177)

فإنه عنى بذلك أنها لمّا دخلت تحت أحكام الزمان وحركات الأفلاك واختلاط الأركان اتحدت بقوى العناصر والأمهات ، واتصلت بالمزاج والممتزج إلى أول المُولّدات ، وهي رتبة المعدن التي كنّى عنها بمواضع الطلوع والأفول لكونها آخر ما يتصل إليه عند الانحدار والنزول ، ومنها طلوعها عائدة إلى موازاة الأوائل ، وذلك ما قصده بقوله :

حَتّى لَقَدْ غَرُبَتْ بِغَيْرِ المَطْلَعِ

(175) اللازب : اللازم . قوله : ضربة لازب يستعمل على نحو مثل في لزوم الشيء بغير تكلف ، وهو أفصح من اللازم . قال النابغة :

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

سامعة : جاز أن يكون بمعنى قابلة إذ السماع قد يكون بمعنى القبول كقول المصلي : سمع الله لمن حمده ، أي قبل الله . Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 164

(176) أي العالم الحسي والعالم العقلي . قوله : فخرقها لم يرقع : فكأنه مثل يضرب في عدم حصول ما سعي بحصوله ، أي ان كان هبوطها لازما لتصير مدركة للمحسوسات عالمة لكل حقيقة في العالمين فما حصل لها ذلك . فخرقها جواب الشرط والشرط قوله : ان كان ضربة ... وباقي الأبيات كأنه موقوف على هذا البيت Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 164

(177) المطلع مصدر ميمي بمعنى الطلوع ، يعني أن الزمان قطع طريق النفس حتى غربت بدون طلوع ثانية لأن مرور الزمان وتتابع الحدثان مؤثر في افناء البدن تحليل الرطوبات الاصليـة والحرارة الغريزية . قوله بغير المطلع : إشارة إلى بطلان التناسخ .

وقد ذكر سيدنا حميد الدين – أعلى الله قدس روحه – في كتاب معالم الدين عند ذكره أول مراتب المعدن الذي هو الجص بقوله : « وذلك حين بدت الطبيعة بالانعكاس راجعة إلى موازاة الأول » ، وعلى ذلك بنى الشيخ الأجل علي بن الحسين بن الوليد – أعلى الله قدسه – رسالته المعروفة بالضلع (178) ، وذلك أنه جعل الضلع الأيمن من المثلّث الذي أثبته فيها طريق الهبوط بالذوات ، وجعل الضلع الأيسر منه طريق الصعود بالصورة ، وجعل قاعدة المثلث موضع المواليد ، وهي آخر الانحطاط وأول الارتقاء . فرتبة المعدن منه التي هي أول رتبة حينئذ بموضع الغروب وعين المطلع .

قال سيدنا حميد الدين أبو علي باب الأبواب – أعلى الله قدسه – في كتاب الذات والصورة (179) فيما تقدم معناه إن « العالَمَ المجبورَ ذواتٌ بلا صورة والعالَمَ المختارَ صورٌ بلا ذوات ، وما بينهما ذوات وصور . فبالذوات كان انحدارنا من ذلك العالم إلى هذا وبالصور صعودنا من هذا العالم إلى ذلك العالم . فاعلم ذلك .

20 – فكأنَّها بَرْقٌ تَألَّقَ بالحِمى ثُمَّ انطَوَى فكأنَّهُ لم يلمعِ (180)

فإنه عنى بذلك صفة حالها لما ظهرت بالقالب البشري ، وتشخّصت بالهيكل الآدمي ، ومدة عمرها ودنو زوالها واختلاف تركيب جسمها ووشيك انحلاله ، ممثلا بذلك لموع البرق وسرعة اضمحلاله ، ومنبّها للسابقين إلى اكتساب الزاد ليوم المعاد والمسارعة إلى فعل الخيرات والاجتهاد ،

---

(178) انظر ص 209 .

(179) انظر ص 206 .

(180) شبه اتصال النفس بالبدن بالبرق الخاطف الذي لا يرجي دوامه لأن مدة اتصال النفس بالبدن وإن كانت مديدة لكنها بالنسبة إلى زمان العالم من الأزل إلى الأبد او من بداية العالم إلى نهايته قليل جداً ، وتوجيه السؤال الذي استحلت عليه هذه الأبيات هو أن يقال : لأي شيء أهبطت النفس إلى البدن . فاما اهبطت لحكمة غير تحصيل الكمال أو تحصيل الكمال . فإن كان الأول فيجب أن يبين لأن تلك الحكمة خفية على ذوي الألباب ، وإن كان الثاني فلم قطعت النفس التعلق عن البدن ولا يتعلق ببدن آخر لتحصيل الكمال لما علم في موضع آخر من بيان أبطال التناسج Carra de Vaux, la Kaçidah, p. 165

وزم النفس الغضبية عن الاخلاق المذمومة والأفعال الرديئة التي هي حقيقة الجهاد ، وعزمها على أعمال العبادات واقتناء الباقيات الصالحات ، والتجمّل برياش التقوى الذي هو الجمع بين العبادتين العلمية والعملية (181) ، والموالاة لأولياء الله وحدودهم – ع م – الذينهم خير البرية ، لتفوز في آخرتهم بالنعم السرمدية والإفاضات العقلية والمسار الأبدية . فيجب على كل عامل حازم عاقل عالم لبيب ويقظان كامل أريب انتهاز فرصة هذا العمر اليسير ، واغتنام مدة هذا المهل منه القصير الذي يشبه بالبرق لسرعة انقضائه وذهابه ، وأزوف أجله المنتظر واقترابه قبل أن يستردّ العارية معيرها ، فتقع الندامة ولات حين مندم ، ويقبض الأنفس مَن إليه مصيرها ، فيقدم المرء من أعماله على ما قدم ، وقد فات المستغاث فلا مغيث حينئذ ، وضاق المذهب فلا مذهب يومئذ .

نسأل الله أن يختم لنا ولكافّة المؤمنين بما ختم لأوليائه المقرّبين ، وأن يجعلّنا من الذين تتوفّاهم الملائكة طيبين ، وأن يبيننا عن القوم الذين ظلموا أنفسهم فلا تنفعهم معذرتهم ولا هم يُستعتبون .

---

(181) العبادة كلمة تفيد القيام بفعل ما على وجه الطاعة والخضوع . وتنقسم هذه العبادة إلى قسمين : عملية وعلمية .

فالعبادة العملية وتسمى بالظاهر وبالتنزيل هي القيام بالشريعة ، وغاية هذا النوع من العبادة هو حفظ الانسان من حيث وجوده الذاتي . أما العبادة العلمية وتسمى العبادة الباطنة وعلم الحقيقة وعلم التأويل والعبادة النفسانية ، فهي معرفة الجانب الباطني من العبادة العملية ، وكذلك معرفة علاقات الحدود بعضهم ببعض والاحاطة بالنظام العلوي الذي يمثل الصورة المكتملة لكل من صورة العالم الأرضي وصورة الانسان .

ويحلل الكرماني هذه العبادة فيقول : « ونحن إذا قلنا الظاهر فمرادنا فيه الأعمال المفروضة في الشرع على ما تنقسم إليه من الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ، والتصرف على الطاعة لولي الله وجميع الأعمال والمناسك في الشرع التي حصلت في الوجود كانت بالحواس مدركة ، ويشترك في ادراكها كل ذي حس صحيح مثل السماء والأرض ... التي لما كانت ظاهرة بالذات محسوسة اشترك في ادراكها كل ذي حس من غير اختصاص بعض دون بعض . وإذا قلنا الباطن فمرادنا فيه العلم على ما ينقسم إليه من العلم بوجود الشيء ... وبكونه من الأشيـاء الظاهرة ام الخفيـة وبمقداره وبصورته وسبب وجوده وبالغرض في ايجاده الذي هو غير محسوس ، ولا يدرك بحواس بل معلوم بالخواطر والأوهام والأنفس والعقول مثل المعرفة بالتوحيد والرسالة والثواب والعقاب والحشر والحساب والجنة والنار وحدث العالم وفنائه ، وغير ذلك ، التي لما كانت باطنة بالذات غير محسوسـة لم يقع الاشتـراك في ادراكها بل اختص بها قوم دون قوم على حساب الاكتساب » . رسالة الكافية ضمن مجموعة الرسائل ص 389–390 .

ونحن نختم الرسالة بالحمد لله على الآئـه المتوالية ، ونِعَمه المتواترة المتتالية ، وبالصّلاة على سماء الحكمة العالية محمّد المُبشَّر به في الأمم الخالية ، وعلى وصيّه علي بن أبي طالب الهالك فيه ذوي الاعتقادات الغالية والقالية ، وعلى الأئمة من ذرّيتهما المحافظة ، عيون حراستهم لحوزة الدين من أذى المبتدعين الكالية ، شموس الحق المشرقة وأنواره المتلالئة ، وعلى مولانا وسيدنا الإمام الطيّب أبى القاسم أمير المؤمنين ، الكاشفة علومه أذى الشبهات عن نفوس أتباعه الجالية ، وسلم تسليما ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تمت الرسالة بحمد مستحق الحمد وأهله ، ومالك الأمر كلّه ، بخط الحقير الدّاني علي ابن حمود بن صالح شبيل الهمداني ، ثبّته الله على طاعة الملك الديّان وطاعة إمام الزمان ، وطاعة داعيه على الانس والجان الآمن مَن تولاّه من تغاير الاكوان ، وسفينة النجاة المفضي بمن تعلّق به إلى أعلى غرف الجنان ، نائب إمام المفلحين سيّدنا ومولانا أبي محمد طاهر سيف الدين (182) ، طوّل الله عمره الشريف إلى يوم الدين ، في سنة 1930/1350 نهار الجمعة 6 من شهر جمادى الأولى .

---

(182) هو الداعي المطلق الحادي والخمسون من فرع الاسماعيلية الداودية (فرع الهند) . وكان سلطان طائفة البهرة بالهند . انظر

A.A.A. Fyzee : A chronological list of the Imams and Dâ'îs of the Musta'lian ismailis. Journal of the Bombay Branch of the Royal Asiatic Society (N.S. 1934), p. 15.

وتوفي الإمام طاهر سيف الدين سنة 1966 .

المصادر والمراجع

ـ آملي (حيدر)

جامع الاسرار ، تحقيق هنرى كوربان H. Corbin وعثمان يحيى ، تهران 1969 .

ـ ابن الوليد (الحسين بن علي)

رسالة المبدأ والمعاد، تحقيق وترجمة وتعليق هنرى كوربان H. Corbin ضمن ثلاث رسائل إسماعيلية Trilogie ismaélienne تهران 1961.

ـ ابن الوليد (علي بن محمد)

الذخيـرة (مخطوط) .

ـ ابن حنبـل (أحمد)

المسنـد .

ـ أبو حيـان التوحيـدي

الامتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، بيروت بدون تاريخ .

ـ اخـوان الصفـاء

رسائل اخوان الصفاء ، تحقيق بطرس البستاني (4 أجزاء) ، بيروت 1957 .

ـ أربعة كتب إسماعيلية

نشر ر. ستروطمان R. Strothmann ، كالكتا 1952 .

ـ ايڤانوف (فلاديمير) Ivanow (Wladimir)

المرشد إلى الأدب الاسماعيلي

Ismaili Literature. A. Bibliographical Survey (A second amplified édition) A — 15, Téhéran, 1963.

— بروكلمان (كارل) C. Brockelmann
Geschichte der arabischen Literatur. Leiden 1898-1949.

— جعفر بن منصور اليمن
الفترات والقرانات (مخطوط) .

— الجيلاني (علي بن فضل الله)
توفيق التطبيق في اثبات أن الرئيس من الامامية الاثني عشرية ، تحقيق محمد مصطفى حلمي ، القاهرة 1954 .

— الحارثي (محمد بن طاهر)
1) الانوار اللطيفة (مخطوط) .
2) مجموع التربية (مخطوط مدرسة الدراسات الشرقية بلندن رقم 25850 .

— رسالة جامعة الجامعة لاخوان الصفاء .
تحقيق عارف تامر ، بيروت 1959 .

— رسائل اخوان الصفاء (انظر اخوان الصفاء) .

— السجستاني (أبو يعقوب)
1) إثبات النبوات ، تحقيق عارف تامر ، بيروت 1966 .
2) الينابيع ، تحقيق هنرى كوربان H. Corbin ضمن ثلاث رسائل إسماعيلية Trilogie ismaélienne تهران 1961 .

— الشهرستاني
الملل والنحل ، تحقيق محمد بن فتح الله بدران ، القاهرة 1956 .

— عمارة اليمني
تاريخ اليمن : تحقيق كاي Kay نقل التعليقات إلى العربية حسن سليمان محمود ، القاهرة 1957 .

– الفقي (الحبيب)
الآراء الدينية والفلسفية للإسماعيلية الفاطمية منشورات الجامعة التونسية 1978 .
Les idées religieuses et philosophiques de l'Ismaélisme fatimide

– فيضي (آصف علي أصغر)
A chronological list of the Imams and dâ'is of the Musta'lian ismaili J.B.B.R.A.S. (N.S. 1934).

– القاضي النعمان (أبو حنيفة)
أساس التأويل ، تحقيق عارف تامر ، بيروت 1960 .

– كارا دي فو Carra de Vaux
قصيدة ابن سينا في النفس ، المجلة الآسيوية
La Kacîdah d'Avicenne sur l'âme. Journal Asiatique. Juillet-août 1899, p. 157-173.

– الكرماني (حميد الدين)
1) راحة العقل ، تحقيق محمد كامل حسين ومصطفى حلمي ، ليدن 1952 .
2) رسالة الكافية ، ضمن مجموعة رسائل الكرماني (مخطوط) .

– المجدوع
الفهرسة ، حققه وعلق عليه علينقي منزوى ، تهران 1966 .

– المجريطي (مسلمة)
رسالة الجامعة ، تحقيق جميل صليبا (جزآن) دمشق 1948 .

– المقريزي (تقي الدين)
خطط ، بيروت بدون تاريخ .